

الإسكندرية مدينة الفن العشق والدم

مصطفى نصر

فى هذا الكتاب وصف دقيق لطقوس الحياة الاجتماعية الخاصة بالإسكندرية، بدءًا من الحب والخطوبة، وربط هذا الحب بروابط اجتماعية لها طابع القدسية من هدايا وممارسات، وتقاليد الزفاف والولادة والسبوع، وثقافة عادات الزواج والحمل والرضاعة، وتقاليد طقوس الموت التى يحتفى بها السكندرى متأثرًا بأجداده الذين قدسوا الموت.

وفى الكتاب أيضًا سرد لملامح حياة أصحاب الحِرَف، ووصف دقيق لحياتهم، وتطرق الكتاب إلى الحديث عن المخدرات كظاهرة اجتماعية جديرة بالدراسة.

وتحدث عن سفاحى الإسكندرية: ريا وسكينة، حسن قناوى، سعد إسكندر، محمود أمين سليمان وغيرهم.

وهو يمزج الرؤية الميتافيزيقية لسكان الإسكندرية نحو هؤلاء الأشخاص بالواقع، فقد يرى البعض أن الخروج على المألوف جرأة، وفى التمرد على السلطان شجاعة، وقد يؤدى هذا التوجه إلى الإعجاب بالسفاحين والتعاطف معهم.

نها مصطفى

ISBN# 9789779101156





الهيئة المصرية العامة للكتاب

الإسكندرية مدينة الفن العشق والدم

مصطفى نصر



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٥

نصر، مصطفى.

الإسكندرية مدينة الفن: العشق والدم/ مصطفى نصر. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤.

١٨٤ص؛ ٢٠ سم.

تدمك ٦ ٠١١٥ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ الإسكندرية.

٢ ـ الإسكندرية ـ العادات والتقاليد.

أ ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٦٧٢٣/ ٢٠١٤

I. S. B. N 978 - 977- 91 - 0115 - 6

ديوى ٩١٦،٢١١

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد

اسم الكتاب : الإسكندرية مدينة الفن
العشق والدم
تأليف : مصطفى نصر

الإخراج الفني : علا عادل

الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www.gebo.gov.eg
email:info@gebo.gov.eg

• إهـداء

إلى أحبائى الذين رحلوا قبلى:

سعيد بدر

سعيد بكر

عبد الرحمن درويش

أحمد حميدة

راقودة، إسكندرية الجنوب

د/محمد رفيق خليل

لم يؤسس الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندرية عام ٢٣٢ ق. م. فقد كانت موجودة قبله بألفي سنة أو أكثر تحت اسم راقودة (رع أقو تيس)؛ إنما أتى بمهندسه دينوقراطس ليزيد عليها ويعدل من هندسة الجزء الشمالي والشرقي الذي أضافه ليسكن فيه الإغريق واليهود والجنسيات الأخرى، بينما ظل المصريون يسكنون الجزء الغربي والجنوبي محتفظين بتراثهم وثقافتهم، وإن حدث تغيير طفيف في لغتهم وبعض عاداتهم نتيجة معايشة الأجانب بيض البشرة في الشرق والشمال من المدينة. ومنذ ذلك الوقت بدأ نزوح أهل جنوب مصر (الصعيد) إلى جنوب الإسكندرية مكونين جزءًا كبيرًا من نسيجها المصري، نذكر أسماء كثيرة للصعايدة السكندريين في العصور القديمة، مثل الفيلسوف أفلوطين رائد فلسفة الأفلوطينية الحديثة في العصر الروماني، والإمام البوصيري في العصر المملوكي.

كون الصعايدة إذن شطرا مهما من النسيج الديموجرافي والثقافي للمصريين بالإسكندرية، حتى في القرنين التاسع عشر والعشرين حيث سكن الأجانب حي شرق الإسكندرية (الرمل)، وعاش السكندريون من الأصول المغربية والأندلسية في الشمال (حي بحري) وظل صعيديو الإسكندرية في مكانهم المفضل جنوب الإسكندرية، واستمروا في التوافد محتفظين بخليط ثقافي فريد من الثقافة السكندرية والصعيدية في آن واحد.

ولذا نشم رائحة الصعيد السكندري في أعمال أدباء كبار مثل إدوار الخراط وإبراهيم عبد المجيد وكاتبنا الرائع مصطفى نصر، الذي رسم لنا صورا دقيقة للحياة في جنوب الإسكندرية: الجهيني، جبل ناعسة، الهماميل، ليالي غربال.. إلخ.

وفي هذا الكتاب "الإسكندرية مدينة الفن والعشق والدم"، يحاول مصطفى نصر أن يدون عناصر ثقافية من التغير في عصر يتغير فيه كل شيء من أفكار وتقاليد وانتماءات، فيسجل هذه الأفكار والتقاليد التي عاشها بنفسه؛ بأمانة وصدق شديدين وحميمية عاشقة.

يصف مصطفى نصر حياة طائفة من سكان الإسكندرية الذين يعملون فى حرفة جمع القمامة، هذه المجموعة التى قد يراها البعض من المهمشين إلا أنها طائفة مترابطة لها تقاليدها الرفيعة التى وصفها الكاتب، إلى جانب الدخول إلى عالم الحمار ذلك المصرى الصميم المتسم بالوداعة والنبل.

ثم يقدم مصطفى نصر وصفا دقيقا للطقوس الاجتماعية الخاصة بالإسكندرية، (وبالذات في مجتمع صعيد الإسكندرية - الجنوبي) يقدم لنا طقوس الحياة بدءًا من الحب والخطوية، وربط هذا الحب بروابط اجتماعية لها طابع القدسية من هدايا وممارسات، ثم تقاليد الزفاف والولادة والسبوع، وثقافة عادات الزواج والحمل والرضاعة، ثم ينتهي بذكر تقاليد طقوس الموت التي يحتفي بها السكندري متأثرا بأجداده الذين كرسوا للموت الأهرام والطقوس التي كانوا سجلوها في كتاب الموتى وكتاب البوابات، سجل مصطفى نصر منمنمات العادات الاجتماعية في الإسكندرية حتى تعرفها أجيال لم تعشها ولم تمارسها.

وفي فصل طريف؛ يصف الكاتب حياة طائفتين متداخلتين في حياة المجتمع السكندري: الحلاقين والمصورين، من خلال علاقته معهم، يقدمهم كنماذج بشرية نجدها في كل المجتمعات ولكن لهم خصوصية في مجتمع الإسكندرية.

ثم يعرّج بنا على ذكر بعض المعتقدات المتعلقة بالأسماء، إلا أنه سرعان ما يتخذ ذلك وسيلة ليذكر لنا طرفا من ذكرياته مع أصحاب هذه الأسماء من شخوص ملحمية، ثم يتابع ذلك بسرد ملامح من حياة أصحاب الحرف الذين مارسوا تجارتهم وصناعتهم في جنوب الإسكندرية، واصفا دقائق حياتهم، ثم يتطرق إلى الحديث عن الحشيش كظاهرة اجتماعية جديرة بالدراسة، ويقدم هذه الدراسة عن طريق سرد علاقة الحشيش بشخوص عايشها الكاتب؛ وكانت هذه العلاقة قاتلة في بعض الأحيان.

وبعد ذلك، يخصص الكاتب فصلا عن السفاحين في الإسكندرية: ريًا وسكينة، سعد إسكندر، محمود أمين سليمان وغيرهم، وهو يمزج الرؤية الميتافيزيقية لسكان الإسكندرية نحو هؤلاء الأشخاص بالواقع. هذه الرؤية التي قد ترى في الخروج على المألوف جرأة وفي التمرد على السلطان شجاعة، وقد يؤدي هذا التوجه إلى الإعجاب بالسفاحين والتعاطف معهم. وذكر مصطفى نصر إحالات إلى تسجيل الأدب لحياة هؤلاء السفاحين مستغلاً هذه الرؤية في إبداع نجيب محفوظ والفريد فرج.

وبعد فصل قصير سجل فيه مصطفى نصر طرائف أسماء الشوارع في الإسكندرية؛ يقدم لنا حي أبي قير بين الميتافيزيقا والأساطير والحكايات والتاريخ وكيف تتمازج الميتافيزيقا مع التاريخ وكيف يتعارضان كما في حالة أبي قير.

وبعد ذلك يفرد مصطفى نصر الثلث الأخير من كتابه بعلاقة الإسكندرية بالأدب، فيختار أديبا مصريا تأثر بالإسكندرية (نجيب محفوظ)، وأديبا أوروبيا عاش فترة من عمره في الإسكندرية هو لورانس داريل، ثم يتحدث عن أدباء الإسكندرية ومشكلاتهم ومآسيهم.

يبدأ بدراسته حول ذاكرة نجيب محفوظ السكندرية، وكيف أن حياته في شطر من حياته بالإسكندرية؛ قد كونت في عقله مخزونا وجدانيا ومعرفيا عن الإسكندرية؛ كان يمكن أن يمكّنه من الكتابة عنها؛ خاصة في اللص والكلاب وميرامار. يرى مصطفى نصر أن

نجيب محفوظ اتخذ من الإسكندرية مسرحا لأعماله دون أن يدخل في صميم المجتمع السكندري، فقضية السفاح محمود أمين سليمان قضية فلسفية يمكن أن توجد في أي مجتمع، كما أن شخصيات ميرامار كلها من خارج الإسكندرية.

ثم يدلف بنا مصطفى نصر إلى عالم الأوروبيين السكندريين كما سجله لورنس داريل في رباعية الإسكندرية؛ واختار مصطفى نصر شخصية جوستين لدراسته؛ فقدم بحثا رائعا عن الشخصية اليهودية المدللة التي تعتقد أنه يجب أن يغفر لها الناس جميع موبقاتها لأنها مميزة عنهم، الشخصية التي تفتن الناس وتغويهم ثم تتخلى عنهم دون أسف...

وفي ختام كتابه يقدم مصطفى نصر زفرات ألم حول وضع أدباء الإسكندرية الذين أصروا على البقاء في الإسكندرية، ويرفض مصطفى نصر اعتبارهم أدباء إقليميين؛ لأن الإسكندرية لها التفرد الذي يمكّنها من قيادة حركة ثقافية لا ترتبط بالعاصمة، فالإسكندرية أيضا عاصمة.

الحشيش والإسكندرية

يبدأ خيري شلبي روايته "موال البيات والنوم" بمجموعة تجلس في غرفة أشبه بالقاعة الريفية؛ استضافه واحد من طائفة الكومبارس لكي يغمّروا رءوسهم بنفسين يصعدان بهما إلى نشوة غالية.

طوال الرواية الجميلة؛ يبحث البطل عن مكان يأويه؛ ويجد فيه طعام العشاء. مرة نام في دورة مياه يقفلها الحارس؛ ليشغلها لحسابه. كان يقفز إليها من دورة المياه المجاورة المتاحة للجميع، وينام فيها للصباح، وعندما يسمع صوت الحارس، يسرع ويقفز إلى دورة المياه المتاحة ليخرج منها، ومرة نام في حقيبة كبيرة موضوعة فوق رف قطار واقف في محطة مصر؛ وأغلق السوستة بإصبع قدمه الكبير.

رغم ظروفه الصعبة هذه يبحث عن الكيف، عن الحشيش. ومن تأثير الحشيش نسى أنه كان مرهقا ويبحث - في الأصل - عن مكان يبيت فيه ليلته، ونسى نشفان الريق وخواء البطن، ونسى وجوه

الحرس والخفراء العكرة التي تعترض طريقه في كل مكان يذهب إليه للبحث عن عمل أو للسؤال عن صديق.

تلك المواقف في الرواية جعلتني أفكر في أمر مهم، علاقة الشعب المصري بالحشيش. حكى لي الشاعر المرحوم أحمد السمرة، بأنه في حي بحري بالإسكندرية، كان بائع الحشيش يجلس على مقعده وأمامه المائدة المرصوص عليها الحشيش، والزبائن يقفون أمامه صفا طويلا؛ ليحصل كل منهم على نصيبه.

أعرف حكايات كثيرة عن ولع الرجال بالحشيش، فقد كنت صديقا لعمي في آخر أيامه. وجدني قد صرت رجلا فاتخذني صديقا يحكي لي مغامراته مع النساء اللائي يعشقنه لوسامته وغناه؛ ويأخذني معه لمقابلة أصدقائه، فأراهم يتحدثون عن الحشيش وكأنه شيء مقدس.

يحكي عمي عما حدث له عندما وقعت منه قطعة حشيش وهو صاعد السلالم المظلمة في بيته، فحمل لمبة الجاز وبحث على السلالم وزوجته تتابعه متسائلة: إيه إللي وقع منك؟ وهو لا يستطيع أن يخبرها بأنها قطعة حشيش (هكذا الرجال يخفون عن نسائهم أنهم يحشّشون)، ويجيبه صديقه: طبعا، دي حتة من القلب.

أعرف أكثر من واحد؛ كتمتْ قطعة الحشيش على أنفاسهم ومات بعضهم بسببها، وبعضهم أُنقذ في آخر لحظة.

كان أبو عامر يجلس كل ليلة في مواجهتنا مع صديقه الذي استأجر دكانا في بيتنا، يدخنان الحشيش ويتحدثان مع آخرين يأتون أحيانا، كانوا يتحدثون بصوت مرتفع، يحكون حكايات مضحكة، ويضحكون ويسعلون، ويسب بعضهم البعض بألفاظ تخدش حياء النساء القابعات في بيوتهن.

الذي يجمع كل هؤلاء هو "الحشيش".

أبو عامر طويل وعريض، يعمل في البلدية، وراتبه كبير، وهو على الرغم من اشتراكه في هذه الجلسات، والاشتراك في الحديث الذي يخدش حياء النساء؛ كان طيبا، يتدخل في حل المشكلات بين الجيران، مشكلته في حياته اهتمامه بالحشيش وعشقه له، جزء كبير من راتبه يذهب للحشيش، والرجل الذي استأجر الدكان في بيتنا يبيعه.

جلس أبو عامر في حفل لرجل مقتدر، حرص على أن يحشش كل الرجال الذين قدروه وعبروه وجاءوا لحفله، الموائد متراصة والجوز (جمع جوزة) متراكمة، ورجاله يسلمون كل مجموعة ملتفة حول المائدة؛ جوزة. وجلس أبو عامر ودخَّن الحشيش كثيرا جدا، والرجل صاحب الحفل يطوف على الموائد ليطمئن ويتأكد من أن الكل سعيد، وأن التموين كثير ويكفي الجميع.

دخَّن أبو عامر وتحدث عن أشياء كثيرة، فلا بد أن يحلِّي جلسته، واقتربت يده من الحشيش الموضوع فوق المائدة، فكَّر، لو أخذ قطعة منه ستنفعه، وقد تكفيه ليومين، يوفر فيهما المصروف

اليومي الذي حدده للحشيش، أبغد يده عن الحشيش وتحدث عن "حسان شرارة" الذي كان يأتي إلى غربال ويغني:

جار الشادوف اللي في داير الناحية

شفت الحليوة أبو جلابية لموني

نظر لي نظرة من عيونه الساحرة

وصلت دارنا وقلت لهم هنوني

وكيف تزوج حسان شرارة من مطلقة آلاتي من الفرقة التي كانت تعزف خلفه، وانتهى به الأمر وهو يؤذن في مسجد سيدي جابر.

وعندما اطمأن أبو عامر إلى أن الكل يتابع حديثه، أمسك بأكبر قطعة حشيش على المائدة ودسها في جيب الجاكيت، ودخن كثيرا إلى أن دار رأسه؛ وهذا لا يحدث كثيرا في حياته، مما أكد له بأن صاحب الحفل حرص على أن يشتري لمدعويه أفضل الأنواع التي لم تخلط بمواد غريبة عن الحشيش.

واستأذن أبو عامر للعودة إلى بيته؛ لأنه يصحو كل يوم مبكرا للذهاب إلى عمله، ولما ابتغد عن الحفل وتلاشت أصوات الغناء التي كانت تطارده طوال الوقت؛ دسَّ يده في جيبه فأحس بالسعادة لملمس قطعة الحشيش الملساء، وأخرجها، وتابعها. لم يَرَ شيئا فقد كان الشارع مظلما. رفع القطعة الكبيرة حتى لامست وجهه، مر بها فوق خديه وشمها بأنفه فأحس بالزهو، سيخفيها بين ملابسه حتى لا تراها زوجته التي تتشاجر معه كثيرا لأنه ينفق مبالغ كثيرة من

مصروف البيت على هذا الزفت. يريد أن يقول لها: إنه يفعل هذا من أجلها. لكنه يتراجع في آخر وقت.

كاد أبو عامر أن يخفي الحشيش في ملابسه ثانية، لكن الرغبة كانت أشد، فقطم قطعة منها ولاكها، ما أسعده؛ قطعة بحالها داخل فمه، أخذ يلوك طوال الطريق المظلم الطويل حتى أتى عليها فأحس بثقل قدميه، جسده الثقيل أعاقه عن السير السريع، أخرج قطعة الحشيش المتبقية ودفعها في فمه حتى كاد يختنق، القطعة كانت كبيرة، البيت اقترب ولابد أن ينتهي منها قبل أن تفتح زوجته الباب له.

سار أبو عامر خطوات قليلة، ما زالت الحشيشة في فمه؛ فوقف وسط الظلام وأكمل المضغ حتى أصبح فمه خاويا وسار، لكن أشياء أعاقته ورمته بجوار الرصيف، في الصباح وجدوه ميتا.

وأعرف موظفا كان يعمل في إذاعة الإسكندرية، كان بخيلا، يبيع للموظفين الجبنة القريش والبيض والسمن الذي يأتي به من بلدته القريبة من الإسكندرية، وتقلي زوجته الطعمية في بيتها القريب جدا من الإذاعة، فيتصل بها طالبا بخمسة قروش طعمية، فترسلها مع ابنها الصغير. ويشتري طعام العشاء قطعا من اللانشون والجبنة البيضاء والتركي والزيتون، فيقول لأبنائه: اختاروا، إما أربع قطع لانشون وخمس حبات زيتون، أو قطعتين جبنة تركي.. إلخ.

ويشتري علب الكبريت، وبمطواة صغيرة، يقطع عود الثقاب نصفين بالطول ليشعله مرتين، وحكايته مع البخل تحتاج لكتاب كبير

أكبر من "البخلاء" للجاحظ، لكنه رغم ذلك يحرص على شراء راتب الحشيش، وبموسى يقطعه ثلاثين قطعة.

كل يوم يدخن قطعة مع السجائر أو الشيشة. يتهافت موظفو الإذاعة لصرف مرتباتهم من الخزينة وقت صرف المرتبات، وهو جالس في مكانه لا يتحرك، يذهب إلى موظف الخزينة بعد صرف المرتبات بيومين، تكون الخزينة خاوية، فيصرف مرتبه أربع جنيهات، كل المبلغ أربع جنيهات، فيضع إيجار البيت في ظَرْف، ومصروف البيت في ظرف، وتموين الحشيش في ظَرْف.

وأستاذ جامعي مشهور يمارس الشعر، يحرص على أن يحشّش في كل مدينة يذهب إليها، وقد حكى لي صديق - لا داعي لذكر اسمه - إنه حضر ندوة في قرية، وأراد أن يعود إلى القاهرة بعد انتهاء الندوة، لكن ذلك الأستاذ الجامعي أخبره بأن هناك مكانا للمبيت بدلا من العودة في ذلك الوقت المتأخر، وفوجئ صديقي بالمجموعة تجلس على حصير فوق الأرض وتحشش، وبعد أن انتهوا قرروا أن يناموا فوق الحصير للصباح، لكن صديقي رفض هذا وأصر على العودة.

وهاجم ضابط شرطة هذا الأستاذ الجامعي وهو يحشّش مع مجموعة في غُرْزة بالطريق بين القاهرة والإسكندرية، فاقترب الأستاذ الجامعي من الضابط هامسا له:

- أرجوك، أنا أستاذ جامعي، ماتبهدلنيش.

فتأثر الضابط لمنظره وأشفق عليه فقال له: امْشِ دون أن يراك أحد.

وتسلل عائدا باحثا عن مواصلة تعيده إلى القاهرة.

وأدهش ما الذي يجعل عمي وأصدقاءه يهتمون ويقدسون الحشيش هكذا؟!

وما الذي دفع أبا عامر ليموت من أجل قطعة حشيش، وهذا البخيل الذي يرسل ابنه الصغير من بيته أيام إجازته، ليجعل مساعده في العمل؛ يطلبه من تليفون الإذاعة ليوفر ثمن المكالمة؛ ما الذي يجعله حريصا على شراء قطعة حشيش تكفيه لشهر بأكمله؟!

أعتقد أن سبب هذا هو النساء، فلذلك يخفي الحشَّاشون عن زوجاتهم أنهم يحششون فهم يخجلون من أن يظهروا أمامهن بأنهم يستعينون بأشياء خارجية لتعينهم على التعامل معهن.

وكنت في مؤتمر أدبي، وحكى أديب كبير عن معاناته مع زوجته بسبب الختان، وأكد أديب أقل عمرا على قول الأديب الكبير قائلا عن زوجته: لقد أتعبتني. ولم يفسر سر هذا التعب، وحيائي منعني من أن أسأله.

كنت أعمل في شركة ورق، تتعامل مع التجار الذين يشترون الورق من السرِّيحة الذين يجمعونه من الشوارع، ويبيعونه لشركتنا، وكنت أمرُّ أمام شونة واحد من هؤلاء؛ شونته قريبة من بيتي، كان يعلم بأنني قد تزوجت حديثا، فيصر على أن يعطيني قطعة حشيش

قائلا لي: أنت بقيت صاحب بيت. بمعنى أن لا بد للمتزوج من أن يستعين على قضاء وطره مع زوجته بالحشيش.

البرود الجنسي الذي سببه ختان النساء، جعل الرجال يبحثون عن الحشيش الذي يجعلهم يتوهون ويشردون فتطول مدة التعامل مع الزوجات، وتجعلهم يصمدون أمام رغبات زوجاتهم، وبدون الحشيش ستتم العملية قبل أن تحس المرأة بالرجل.

أبو قير.. بين الحقيقة والخيال

حي أبى قير من الأحياء المهمة في الإسكندرية، فهو مصيف شهير ذو طابع شعبي، يلجأ إليه متوسطو الدخل والفقراء؛ لنفقاته المحدودة، ويمكن الوصول إليه من الأماكن كافة في الإسكندرية، إن لم يكن بالأوتوبيس العام؛ فيمكن ذلك عن طريق سيارات الميكروباص المنتشرة في كل مكان في المدينة، والذين يسكنون قريبا من محطات القطار، يركبون القطار الذي يبدأ من محطة مصر وينتهي في أبي قير، ولذلك سمي بقطار أبى قير.

وحي أبى قير كان معسكرًا للإنجليز قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، وكان معتقلا سياسيا حُبس فيه العديد من المناوئين للنظام؛ ومنهم عدد كبير من المشاهير والمعروفين، فضلا عن الاعتقال التاريخي لزعيم المقاومة الشعبية ضد الحملة الفرنسية في الإسكندرية السيد محمد كريم، في السفينة الفرنسية (أورينت) الراسية على شاطئ أبى قير، قبل الحكم بإعدامه.

كما أن حي أبى قير معروف في التاريخ بمعركة أبى قير البحرية التي نشبت بين الأسطول الإنجليزي، والأسطول الفرنسي الذي تحطم على يد القائد الإنجليزي الشهير نلسون، وما زالت آثار هذه المعركة موجودة حتى الآن في مياه أبي قير، فضلا عن الآثار الغارقة التي يتم اكتشافها كل فترة في خليج أبي قير.

وقد كنا نري حي أبى قير في السينما كثيرًا، فقد ذهب عبد الوارث عسر في فيلم "ليلة من عمري" بابنته "شادية " عندما اكتشف إنها حامل من ابن صاحب المزرعة التي يعمل بها، حتى يداري على الفضيحة. فاستقبلتهما "فردوس محمد" في حي أبى قير.

وعندما اندمجت الشركة التي كنت أعمل بها عام ١٩٦٨ مع شركة الورق الأهلية؛ انتقلت إلى منطقة الطابية ـ مقر الشركة ـ فأصبحت قريبا جدا من حي أبى قير، وكان مكتبي ملاصقا لباب الفراندة الكبيرة التي تطل على خليج أبي قير. وتزاملت مع الكثير ممن يعيشون في أبي قير. وكان منهم عامل في المصنع طويل وعريض، لا يحمل أية مؤهلات لكنه يجيد القراءة والكتابة ويهوى الأدب والقراءة في السياسة، وطلبوا في الشركة مجموعة من العاملين للحصول على دورة ثقافية في موضوع الصراع العربي الإسرائيلي، ولأن رئيسه في العمل غير مرتاح له، ويريد أن يبعده عنه، فقد رشحه للحصول على هذه الدورة، كان يريد أن يضره، فالدورة ستحرمه من الحوافز التي تصرف للذين ينتظمون فى

العمل؛ ولا يدري بأنه قدم له خدمة العمر، فقد كان زميلي هذا الأول على الدارسين في الدورة، ثم تخصص في موضوع الصراع العربي الإسرائيلي، وأصبح مُحاضرا، ثم مسئولا عن مركز ثقافة عمالي، وشجعه هذا على أن يرشح نفسه في انتخابات النقابة، ويعد برامج عن العمال في القناة الأولي. وحكى لي زميلي هذا عن حكاية حدثت بعد قيام ثورة يوليو ٥٢ مباشرة، إذ أُقيمت ندوة كبيرة في أبي قير حضرها مجلس قيادة الثورة، وأراد زميلي أن يقابلهم ليعرض عليهم مشكلته، إذ كان أخوه طالبًا في كلية الطب وإخوته الآخرون في كليات أخرى، ودخلهم لا يكفيهم. فذهب إلى خواجه يمتلك مصنعا لصناعة اللانشون والبسطرمة ملاصقًا للمعسكر الذي ستقام فيه الندوة، وألحَّ عليه حتى وافق الرجل على أن يقفز زميلي من الجدار الذي يفصل بين مصنعه والمعسكر، والمغطى أعلاه بالزجاج المكسور. أعطاه الرجل أشياء تغطي هذا الزجاج، وقفز، واقترب من أنور السادات وحسين الشافعي، وأراد أن يصل إلى جمال عبد الناصر الذي يجلس على المنصة، فمنعه حسين الشافعي، لكن السادات قال له: "اتركه"، وأخذ منه الشكوى، وحل جمال عبد الناصر مشكلته.

وزميل آخر حاصل على دبلوم تجارة متوسطة، لكنه يعمل منذ صغره في صيدلية في شاطئ المعمورة. فكنا نسميه في الشركة بالدكتور، ونعتمد عليه في شراء الأدوية، لدرجة أن تذكرة علاج التأمين الصحي التي يصرفها الطبيب الزائر لعيادة الشركة، كان

يصرفها لنا من الصيدلية التي يعمل بها. كان يعمل في خزينة الشركة الملاصقة للعيادة، فما إن نحصل على تذكرة العلاج؛ حتي نذهب إليه في الخزينة ونعطيها له، ويأتي إلينا في اليوم التالي حاملا الأدوية، وكنا نسأله في مسائل العلاج.

حكى لى زميلي هذا عن صداقته لصاحب مطعم مشهور في أبي قير، كان صديقا للرئيس أنور السادات، وكان السادات يرتاح لتناول الطعام عنده حتى بعد أن صار رئيسا للدولة، فكان يصحب ضيوفه إلى هذا المطعم، وكذلك تفعل زوجته السيدة جيهان السادات، إذ كانت تذهب إليه مع ضيوفها، وكانت تقول لصاحب المطعم:

- أنت لا تعطي اهتماما لي كما تفعل مع الرئيس السادات.

وحكى زميلي هذا عن اصطحاب الرئيس السادات للرئيس جعفر نميري قبل خلعه، وجاء صاحب المطعم مرحِّبًا، فقدم إليهما الجمبري الكبير، وتناولاه وهما يتحدثان، كان النميري يغمس "الجمبراية" الكبيرة في طبق الشطة ويتناولها في مرة واحدة. إلى أن أتى على كل الكمية المعدة للأكل في المطعم، فقام الرجل بطهو كمية أخرى، وظل السادات والنميري يتحدثان إلى أن انتهى عمال المطعم من تقديم الأطباق الجديدة، وانتهت كمية الجمبري الموجودة في المحل. فجاء الرجل معتذرا، وقال:

- يمكن أن أحضر كمية أخرى من محلات مجاورة.

.. لكن النميري قال: لا كفاية كده.

يعمل معظم سكان أبى قير في صيد الأسماك، وقد أثرت هذه المهنة على حياتهم ومعتقداتهم، فإحساسهم بأن الرزق الذي يأتيهم من البحر غير محدد ومتغير بشكل كبير، فيوم يأتون بصيد وافر، وأيام بصيد قليل، وأحيانا بلا شيء؛ جعلهم يؤمنون بالغيبيات بطريقة مبالغ فيها، فيتفاءلون بأشياء عند خروجهم للصيد ويتشاءمون بأشياء. فيخافون من الصيد يوم الجمعة، خاصة وقت صلاة الظهر، لمعتقد سائد في الإسكندرية كلها بأن يوم الجمعة فيه ساعة نحس.

وحكى لي شاب بأن ظروفه المعيشية تعثرت، وقل رزقه، فذهبت حماته إلى صياد يرمى جرافة السمك، وظلت قريبة منه إلى أن يشد هو ومن معه الجرافة، وطلبت منه قطعة صغيرة جداً من الشبكة، فقطع لها القطعة المطلوبة، وأعطتها لزوج ابنتها، وأكد لي الشاب، بأن رزقه ازداد وكثر، بعد أن وضع هذه الشبكة الصغيرة جدًا في ملابسة.

أبو قير في ألف ليلة وليلة

وقد زعمت ألف ليلة وليلة أن حي أبو قير ينسب إلى شخص سكندري كان يعمل صباغا، وكان نصابا كذابا وصاحب شر قوي، كأنما صدغه منحوت من الجلمود، أو مشتق من عتبة كنيسة اليهود، لا يستحي من عيبة يفعلها بين الناس. كان يأخذ الأقمشة التي في حاجة إلى صبغ من أصحابها، ويأخذ أجرتها مقدما، ويصرف هذا على أكله وشربه، ثم يبيع القماش أيضا، لم يكن مضطرا لهذا،

وإنما سوء خلقه يجعله ينفق أموال الناس على ملذاته، ويأتيه صاحب القماش؛ فيتهرب منه بحجج كاذبة. مرة كان عنده ضيوف ولم يستطع تركهم لوحدهم، ومرة أخرى زوجته كانت تلد فاضطر للبقاء بجوارها. وتكرر هذا حتى ضاقت الناس منه؛ فطالبوا بأقمشتهم، فادعى بأن لصا سرقها. كان أبو قير يختبئ في دكان "حلاق" اسمه أبو صير؛ مواجه لدكانه، فيتابع المكان من عنده، إلى أن فعل هذا مع رجل جبار فاشتكاه إلى قاضي المدينة، فأرسل القاضي رجاله؛ فأغلقوا الدكان وختموا الغلق وقالوا للجيران: قولوا لأبى قير أن يحضر حاجة هذا الرجل ويأتي لأخذ مفتاح دكانه من سيدنا القاضي.

تابع أبو صير كل ما يحدث من دكانه، فسأل أبو قير:

- أين ذهبت أقمشة هذا الرجل؟

- سُرقت منى.

- لا يمكن أن تسرق كل الأقمشة التي تأتي إليك، اصدقني القول لأساعدك.

فبكى أبو قير وقال:

- الحقيقة أني أبيعها وذلك بسبب فقري وكساد بضاعتي.

فقال أبو صير في أسى:

- وأنا أيضا صناعتي كسدت، ولم يعد يكفيني الدخل.

فصاح أبو قير:

- لابد من ترك هذه البلدة والبحث عن مدينة أخرى.

واتفقا على السفر وقرآ الفاتحة على أن يكونا أخوين، وأن العامل يطعم البطال، وركبا إحدى السفن التي لم يكن بها حلاق، فاحتاج الركاب إلى الحلاق، فكان أبو صير يطلب أن تكون أجرته طعاما ليأكل معه رفيقه أبو قير، فحمل زادا كثيرا وذهب به إلى صديقه الذي كان مريضا من تأثير دُوار البحر.

ظل أبو صير يحلق للناس في السفينة ويجمع الطعام ويعطيه لأبى قير فيأكله، حتى وصلت السفينة إلى إحدى المدن فاستأجرا حجرة في "خان" فدفع أبو صير الأجرة وجاء بطعام فطبخه وأبو قير نائم لا يقوم إلا للأكل. استمر الحال إلى أربعين يوما، يدور أبو صير بالعدة، يحلق للناس ويأتي بالطعام إلى زميله. لكن في اليوم الحادي والأربعين مرض أبو صير ولم يقدر على العمل؛ حتى أغمى عليه؛ فقام أبو قير وارتدى ملابسه وأخذ نقود زميله وهرب، فاشترى ملابس جديدة وطاف بالمدينة، فوجد الناس يرتدون ملابس ألوانها من الأبيض والأزرق فقط، كما أن أجرة الصبغ غالية جدا عنها في الإسكندرية، فطلب من صاحب مصبغة أن يعمل عنده وأن يصبغ له جميع الألوان؛ فرفضه صاحب المصبغة وقال:

- نحن الصباغون لا نقبل غريبا علينا.

فذهب أبو قير إلى ملك المدينة وأخبره بأنه قادر على صباغة الألوان والصباغون يرفضونه عاملا عندهم. فأعجب الملك به

وافتتح له مصبغة في أهم مكان في المدينة. واغتني أبو قير وسار صيته في المدينة كلها. أما أبو صير فقد أفاق من إغمائه بعد ثلاثة أيام، فبحث عن نقوده فلم يجدها، وساعده صاحب الخان حتى شفي من مرضه، واكتشف أن أبا قير، زميله، أصبح غنيا؛ فذهب إليه. وكان أبو قير يجلس على مرتبة عالية وعليه بذلة من ملابس الملوك، فوقف أبو صير أمامه، فهب أبو قير ثائرا وصاح:

ـ امسكوا هذا الحرامي.

فجرى عماله خلفه وقبضوا عليه، وأمرهم أبو قير بأن يضربوه بالعصا على ظهره مائة ضربة، متهما إياه بالسرقة. رجع أبو صير إلى الخان وجسده كله يؤلمه من ضرب عمال وخدم أبو قير، فقرر أن يذهب إلى الحمام ليريح جسده، فسأل صاحب الخان عن الحمام، فدهش الرجل وقال: إن المدينة بأسرها لم تسمع عن الحمام الذي تحكي عنه ولا تعرفه.

فذهب أبو صير إلى الملك وأخبره بعزمه افتتاح حمام، فوافقه الملك وافتتح له حماما، ودخله الملك وحاشيته، فتزاحم الناس واغتنى أبو صير. علم أبو قير بما حدث لصديقه القديم أبى صير، فذهب إليه وادعى بأنه عندما أمر بضربه لم يكن يعرفه. ونسى أبو صير ما حدث وأكرم أبا قير. وعلم أبو قير أن أبا صير يستخدم دواء لإزالة الشعر الزائد في الجسم مصنوعا من الجير والزرنيخ، فأبدى أبو قير إعجابه بهذا الدواء ونصحه بأن يقدمه إلى الملك عندما يأتي إلى حمامه؛ فحتما سيكافئه مكافأة كبيرة على ذلك.

وذهب أبو قير إلى الملك وقال له: جئت يا مولاى لإنقاذك من الموت، فأبو صير ما جاء إلى المدينة إلا لقتلك، وذلك بتحريض من عدوك ملك الروم، وسوف يكون القتل بدواء له رائحة كريهة، سيدعي أنه يزيل الشعر الزائد في الجسم. وعندما قدم أبو صير الدواء إلى الملك؛ أمر بالقبض عليه، وسلمه إلى قائد سفنه، وأمره بأن يضعه في زكيبة بها جير حي وأن يرميه في البحر حتى يموت شر موتة، لكن القبطان رقّ لحال أبى صير، فأخذه إلى جزيرة بعيدة وسأله:

- أخبرني بما حدث بينك وبين الملك، فأنا أعرفك وزرتك في حمامك وقد أكرمتني.

فقال أبو صير: - لا أعرف للآن سر غضب الملك عليّ.

فقال القبطان: - سأنقذك نظير ما أكرمتني في حمامك، امسك الشبكة واصطَد السمك لمطبخ الملك إلى أن أعود.

ووضع القبطان داخل الزكيبة قطعة حجر، وسار بالقارب، فإذا بالملك ينتظره في النافذة، فسأله القبطان: أرميه؟ فأشار الملك بإصبعه: ارمه. فوقع الخاتم من إصبع الملك في البحر، فحزن الملك كثيرا، لكنه أخفى هذا على الجميع، فهو يستخدم هذا الخاتم في قتل من يريد قتله بأن يشير إليه من بعيد.

فوجد أبو صير الخاتم داخل سمكة كبيرة من التي اصطادها، ولبس الخاتم، فجاءه خادمان يسألان عن سمك الملك، فعندما أشار بالخاتم قتلا في الحال.

وعندما جاء القبطان حكى أبو صير له ما حدث، فقال له: إن هذا الخاتم يقتل من بعيد إذا أشرت به إلى أحد.

وعاد أبو صير إلى المدينة وذهب توًا إلى الملك، الذي قال: أما أمرنا برميك في البحر؟ فقال أبو صير: لم أفعل شيئًا يضرك (وحكى له ما حدث حتى حصل على الخاتم)، فقام الملك واحتضن أبا صير وطلب منه أن يسامحه.

فقال أبو صير: ـ إذا أردتني أن أسامحك، أخبرني بسبب غضبك عليَّ.

فحكى له الملك عما أخبره به أبو قير عنه.

فقال أبو صير: لا أعرف ملك الروم ولا رحت بلاد الروم، وإنما هذا الصباغ رفيقي وجارى في مدينة الإسكندرية (وحكى له ما حدث بينهما)، وإن هذا الدواء ذا الرائحة الكريهة غير ضار للجلد فهو مجرب لدينا في بلادنا ويشهد بذلك على ما أخبرتك به عمال الحمام وخادم الخان و.. إلخ.

فأرسل الملك في طلب الشهود، فأكدوا له قول أبى صير، فقبض الملك على أبى قير، وأمر بأن يُقيد ويجرس، ثم يضعوه في زكيبة مملوءة بالجير الحي ويرموه في البحر. ونظر إلى أبو صير وقال له:

ـ تمنَّ عليَّ.

فقال أبو صير: أريد أن أعود إلى الإسكندرية.

ثم ودع الملك وسافر بكل ما يملك، ورست السفينة بجوار الإسكندرية، فرأى أحد خدمه زكيبة في جانب البر، فأمر بفتحها، فإذ بها أبو قير وقد دفعه الموج إلى جهة الإسكندرية، فأمر أبا صير بإخراجه من الزكيبة ودفنه بالقرب من الإسكندرية، وعمل له مزارا وأوقف عليه أوقافا.

وبعد وقت ليس بالقصير مات أبو صير فدفنوه بجوار صديقه ورفيقه القديم أبى قير، ومن أجل ذلك سمي هذا المكان بأبى قير وأبى صير. ثم اشتهر بعد ذلك بأبو قير.

أبو قير في كتب التاريخ

لم يكن المصريون القدماء يعرفون اسم أبى قير، ولكن كانت هناك كانوب ـ الميناء التجارية لمصر القديمة التى كان ينتهى عندها فرع قديم ـ اندثر الآن ـ لنهر النيل، وهو الفرع الكانوبى، وكان آخر تفريعات دلتا النيل إلى الغرب.

تنسب بلدة أبى قير، ضاحية الإسكندرية المعروفة إلى بوكير، الأنبا كير، أو قيروس أباكير الطبيب الناسك المستشهد في الإسكندرية عام ٣١٢ في العصر الروماني.

ولد بوكير بالإسكندرية في النصف الأخير من القرن الثالث الميلادي من أبوين مسيحيين، ألحقه والده بمدرسة الطب بالإسكندرية، فتخرج فيها ومارس مهنة الطب، كان معاصرا للإمبراطور "دقلديانوس" (٢٨٤ ـ ٣٠٥) الذي كان يرغب في أن

يؤلّهه الناس في بلاده والبلاد الخاضعة لحكمه؛ فاضطهد مسيحيي مصر لأنهم لم يستجيبوا لذلك، فعذبهم وذبح عشرات الألوف منهم، خاصة في الإسكندرية وضاحية كانوب (أبو قير حاليا).

كان يحكم الإسكندرية في عصر "دقلديانوس"؛ "سريانوس" الذى كان شديدا قاسيا، فبلغه أن الطبيب أبا كير يحرض المسيحيين ضد إرادة الإمبراطور، فأمر بالقبض عليه، لكن أبا كير ترك الإسكندرية وهرب إلى الصحراء الشرقية وتنسك مع الرهبان مع مزاولة مهنة الطب؛ فذاع صيته واشتهر بقدرته على الشفاء. وبلغ أبا كير أن سريانوس يتربص بأسرة يعرفها؛ فعاد من أجله، وسار مع صديقه يوحنا الذي كان قائدا رومانيا أعجب بالمسيحيين فترك الإمبراطور واعتنق المسيحية. ووصلا إلى مدينة كانوب، واتصلا بهذه الأسرة. وبقيا معها إلى أن جاءت قوات سريانوس فقتلت الجميع، فحمل الأهالي الشهيدين وذهبا بهما إلى كنيسة مرقص ودفنا بها. وعندما اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية أقام كنيسة باسم الرسل، وديرا للرهبان، وتحول بيت أبا كير إلى مزار مقدس ثم إلى كنيسة كبيرة. وجاء الناس إلى هذه الكنيسة من كل مكان ابتغاء للشفاء من أمراضهم، فذاعت القصص والحكايات والعجائب عن قدرة الكنيسة على الشفاء. كانت الكنيسة تقع على شاطئ البحر، وقد تلاشت بسبب أمواج البحر وكثبان الرمال ثم، أقيم مكانها القلعة المعروفة ببرج نابليون. ثم تحول اسم أبا كير إلى أبى قير.

الأحياء الشعبية في الإسكندرية
مزايا وجنون

نشأتُ في حي شعبي، وما زلت أعيش فيه، ويُخيل إليَّ أحيانا أنني لا أستطيع أن أعيش في حي غيره، وذلك يذكرني بصديقي الذي وصل في عمله إلى وظيفة مدير عام، وزوجته تعمل معه في نفس الشركة، وكانا يسكنان بيت أمه، في حارة منخفضة، يعلوها جبل بدرجات بازلتية، وثلاث حدايد لتحمي السيارات من الوقوع من أعلى الجبل، وسيدات يجلسن خارج بيوتهن، ويضعن عشش الدواجن خارج البيوت، ويتركن الفراخ والبط والإوز ترعى في الحارة وتأكل من فضلاتها، وأطفال يطوف بعضهم حول البعض طوال الوقت وهم يصيحون، وبجوار بيته رجلٌ اسمه "حمامة" يؤجر "المستعجلات" الخشبية والمعدنية إلى أطفال الحي.

وطوال الوقت يدق حمامة هذه "المستعجلات" تحت شباكه، وكان صديقي يسكن الدور الأرضي. ألحت زوجته عليه بأن يترك هذه الحارة التي لا تتناسب مع وضعه الاجتماعي الآن وبالفعل سكن في "فلمنج"، فأحس بالغربة، فالهدوء هناك قاتل؛ خاصة أنه كان يسكن

الدور الأخير (قبل السطوح مباشرة). وفي أول يوم سكن لصديقي في حي فلمنج، قالت زوجته له:

- "أحس بالوحشة لدق حمامة على مستعجلاته".

وحدثتني ابنته بأنها غير مرتاحة لهذا الحي الجديد، فهناك في غريال كانت تصادق فتيات في مثل عمرها، لكن هنا لا أجد صديقة، فكل واحد في حاله.

ويأتي صديقي هذا بأسرته من وقت لآخر للعيش في بيته القديم (فهو لا يزال يشغل شقة فيه) يقضي عدة أيام وأحيانا تطول المدة لأسابيع، خاصة في شهر رمضان، فرمضان فى حي فلمنج ليس له طعم.

وقد حدث منذ سنوات كثيرة أن سمعنا جلبة في بيتنا، فأسرعت إلى دخلة البيت، فوجدت شابا هاربا من شباب كثير جدا يطاردونه، فاحتمى في بيتنا، ونظرت إلى الشارع فوجدت الشباب يقفون، منهم من يحمل شومة، ومنهم من يحمل سيفا، ومنهم من يحمل رِجْل كرسي. ودخل شابان البيت فوقفت لهما، ومنعتهما من الوصول إلى هذا الشاب الذي لا أعرفه. ثم عرفت المشكلة، هذا الشاب الهارب غريب عن الحي وتشاجر مع واحد من المنطقة، فجاء كل هؤلاء لمساندته، فأمسكت صاحب المشكلة، وقلت له:

- المعركة معاك أنت. وهذا الشاب لو خرج سيتجمعون لضربه كلهم، فأكيد سيموت تحت أيديهم. وكل منهم سيذهب إلى بيته، وأنت الذي ستُحاكم، لأنك صاحب المشكلة.

وأدرك الشاب قولي وصدقني، فأمسك بالشاب الآخر وحماه من زملائه.

ولقد فعلت هذا لأنني تذكرت حادثة حدثت في الحارة التي كانت تسكنها جدتي والتي وصفتها وأنا أحكي عن صديقي الذي أصبح مديرا عاما. فقد اختلف قريب لي مع واحد من الحي، الاثنان يمتلكان قسمَيْ زبالة متجاورين في حي سبورتنج. اختلفا على شارع من الشوارع. هذا يقول "تبعي"، والثاني يقول "لأ، ده تبعي أنا". والظاهر أنهما تشاجرا هناك. المهم أن الرجل الآخر اتفق مع اثنين بلطجية يعملان في كازينو من كازينوهات البحر على أن يأتيا لضرب قريبي هذا. فجاءا إلى غربال، وكانا فى حالة سُكْر أو ادعيا هذا. وكانا يرتديان زيا موحدا عبارة عن بنطلون أسود وفانلة سوداء برقبة، ووضع كل منهما ذراعه على كتفي الآخر ونزلا من فوق الجبل وهما يصيحان ويطلبان قريبي. وهجم أهل الحي عليهما. ضربوهما في وحشية فارتمى قريبي عليهما، وقال:

- "اضربوني أنا بدلا منهما".

فقد أدرك أن الاثنين سيموتان لا محالة، وهو الذي سيحاكم لأنه صاحب المشاجرة، فأنقذهما وتأكد من أنهما خرجا من الحي سالمين.

وعندما يصاب أحد من أهل الحي في حادثة؛ تجد المئات في المستشفى حتى يندهش العاملون والأطباء مما يرون، فالزوار

يشغلون الحجرة الراقد فيها المريض، ويقفون في الممرات، ويقف بعضهم خارج المستشفى من كثرة عددهم.

وقد وقعتُ من الدور الثالث عندما كنا نبني بيتنا في أواخر الستينيات، وحملوني إلى مستشفي "الجمهورية" القريب من بيتنا، وكنت متعبًا للغاية، أشكو من كل جزء في جسمي، فدهش أحد المرضى مما يرى وصاح:

- "ده جاله عدد يصل للمئات، فكيف تتركونه في مستشفى حكومي هكذا؟!" ظن الرجل أنه ما دام معارفي كثيرين هكذا، فلا بد أن أكون غنيًا.

وفي التعازي، يمتلئ الصوان بشكل غريب، حتى يقف شباب أسرة الميت وأهل الحي ليعطوا فرصة للمُعزِّين بأن يجلسوا على المقاعد الشاغرة، ويقف الذين يتلقون العزاء على الرغم من كبر سنهم، ويرص الشباب المقاعد خارج الصوان حتى تصل لآخر الشارع، وينبه أهل الميت على المقرئ بألا ينتهي من قراءته مبكرا. لكي يزداد العدد، ليرى الناس الأعداد الهائلة التي جاءت لمواساتهم. فالمقرئ إذا ختم السورة التي يقرؤها فسيخرج من الصوان الكثير ليفسحوا أماكن لآخرين.

ولقد حول أخي الحجرتين اللتين تطلان على الشارع في بيتنا إلى دكانين، أحدهما كبيرا استأجره رجل من بلدتنا ويسكن قريبا من الحارة التي كانت تسكنها جدتي، فحول الدكان إلى مقهى، وكان يجلس في مواجهة بيتنا هو وأصدقاؤه يدخنون الحشيش

ويتحدثون، كنت أسمع حديثهم الغريب. فيحكي أحدهم عن المغنين: الشيخ أمين وحسان شرارة، وإبراهيم برغوت، وأبو دراع، وأحمد ملوخية. ويسأله صاحب القهوة:

- "فيه مطرب اسمه أحمد ملوخية؟!"

فيصيح بصوت أعلى:

- طبعا، صوته أجمل من حسان شرارة.

(وأحمد ملوخية هذا ليس مطربا، وإنما كاتب أغانٍ من البحيرة كتب أغاني لكبار المغنين من أمثال محمد قنديل، وصباح وليلى مراد) .

واشترى صاحب القهوة سيارة مستعملة، وضعها أمام بيتنا، وكان يجالسه رجلٌ مُسنٌّ يسكن قريبا من القهوة، يسعل طوال الجلسة ويعمل مقاول أنفار يتعامل مع شركات القطاع العام، قال المقاول لصاحب القهوة في زهو وافتخار:

- "أنا أعرف ضباط من المرور لغاية الآداب، وبعون الله، لو عربيتك مسكها ضابط مرور، حارجعهالك في يومها".

وفي الصباح التالي اكتشف صاحب القهوة سرقة سيارته، التي لم تعد حتى الآن.

وكنت أعاني من هذه القهوة بسبب صوت المذياع والكاسيت العالي، فقد كان شقيق زوجة صاحب القهوة، الذي يديرها، يحب فتاة تسكن البيت المقابل، وكانت تنادي عليه من وقت لآخر ليرسل

إليهم الشاي والحاجه الساقعة إذا زارهم زائر، فإذا غضبت عليه البنت وأساءت معاملته؛ يرسل إليها عن طريق الكاسيت أغاني الاستعطاف مثل أغنية محمد رشدي "خاصم شهر وصالح يوم، ياللي مقضي هوانا خصام كفاية تسعة وعشرين يوم"، وأغنية سميرة سعيد "محبش الخصام، محبش الزعل".

فيقول صاحب القهوة لشقيق زوجته بصوت مرتفع يسمعه كل الجيران في مساكنهم" طيب أنت بتحب، الناس ذنبها إيه تدوشهم بأغانيك؟".

كنت أغضب وأثور وأهدد، لكنني أتذكر أعمالهم الطيبة معي فأتراجع. فقد جرحت زجاجة قدم ابني الصغير، وكنت مضطربا لا أعرف ماذا أفعل. فإذ بهم يأخذونه بعربية نصف نقل كانت تقف أمام القهوة، ويذهبون به إلى المستشفى، ويعالجونه.

ويوم أن مات ابني في المستشفى، وسمح الطبيب بحمله إلى البيت، وكنت في شقتي لا أعلم، فوجئت بشقيق زوجة صاحب القهوة يحمل ابني الميت ويدخل به الشقة.

الأحياء الشعبية بها مزايا كثيرة غير موجودة في الأحياء الراقية، لكن بها أشياء كثيرة سيئة، ففي الأحياء الراقية إذا اختلفت مع جار من الجيران، لا يصل الأمر إلى الشجار، كل ما يفعله الذي اختلفت معه، أن يقول لك: "سأرفع عليك قضية" لكن في الأحياء الشعبية؛ عادة ما يؤدي الخلاف إلى شجار بالسيوف والشوم وماء النار أحيانا.

كما أن كثيرا من القيم تبددت، فعمي كان يسكن حي "سوق عقداية" المشهورة بتجارة المخدرات، وكان بيته يسمونه بيت الصعايدة، فالشرطة وأهل الحي يعلمون أن ليس له في هذه التجارة. وحدث أن رمي ابن عمي وهو طفل صغير طوبة على دكان واحد من تجار المخدرات، فكسر زجاجه. (وتجار المخدرات هناك يمتلكون محلات فخمة، الغرض منها التمويه بأن إنفاقهم من هذه التجارة، وليس من المخدرات) وجاء عمي من عمله قرب المغرب، فأخبرته زوجته بما فعله ابنه الشقي، فذهب إلى صاحب الدكان عارضا عليه ثمن الزجاج المكسور، لكن الرجل أقسم وأصر على ألا يأخذ منه مليما، بل قدم إليه مشروبا، وأعطاه قطعة حشيش كبيرة هدية له.

هذا ما كان يحدث في الماضي لكن الآن ظهرت في الأحياء الشعبية طبقة من الطفيليين، الذين يعيشون ويعتمدون على جرأتهم وقلوبهم الميتة، فقد تصدوا لعملية شراء البيوت القديمة من أصحابها وإقامتها عمارات تتكون من قرب العشرين دورا؛ مخالفين بذلك قوانين البناء.

وهم يتعرضون لمشكلات لا يستطيع مواطن عادي أن يتحملها، فيقبض عليهم ويحالون إلى النيابة، ويقضون في أقسام الشرطة بالأيام والشهور ويعودون (عادي جدا)، كما أنهم تعلموا كيف يتعاملون مع الموظفين المرتشين الذين يساعدونهم على الهروب من العقاب.

الأمَرُّ والأدهى هو إقامة السرادقات في الأحياء الشعبية، فحينذاك لا تستطيع أن تبقى في شقتك، ولو كان السرادق في شارع بعيد عن بيتك؛ فالأصوات العالية جدًا تأتيك من كل مكان، ومن خلف شيش البلكونات والنوافذ.

وقد رأيت مجموعة من الأطفال يتبارون على من يستطيع أن يقترب من السرادق ويبقى أطول مدة ممكنة. إنه عذاب. ولا يتحرك أحد لمنعه؛ لا الشرطة ولا رجال الدين الذين يسمعون القرآن يتلى من خلال أجهزة تردد الصوت بطريقة تسيء إلى القرآن. والأمَرُّ والأدهى أن أعضاء مجلس الشعب يأتون في كل سرادق لتعزية أهل الميت، ويسمعون هذه الأصوات التي تدعو إلى الجنون.

فوضى تسمية الشوارع في الإسكندرية

أطول شارع في الإسكندرية

في الإسكندرية شارع طويل، يبدأ من قصر ثقافة الحرية المجاور لنقطة شريف المشهورة؛ وينتهي في المنتزه، ومن الممكن أن يبدأ من أبعد من ذلك، لكن لسبب لا أدريه اقتطعوا جزءًا مكملا له؛ أطلقوا عليه شارع سيدي المتولي.

المهم أن هذا الشارع الطويل جدا لا يزال حائرا بين أسماء عديدة، فقد كان اسمه قبل الثورة "شارع فؤاد الأول" - ولا يزال البعض يسمونه بهذا الاسم - ثم أطلقوا عليه اسم " طريق أبو قير"، ثم " طريق الحرية "، وبعد موت الزعيم جمال عبد الناصر أطلقوا اسمه عليه، لكن البعض غير مقتنع بهذا ويستكثر على زعيم عظيم بهذا الشأن أن يكون أطول شارع في الإسكندرية على اسمه، فتمسكوا بالاسم القديم؛ "طريق الحرية".

فبعد أن حددوا الرموز البريدية لكل حي، علقت البلدية لافتات عليها أسماء الشوارع وتحتها الرموز البريدية؛ فعلقوا لافتة قريبة جدا من كلية الهندسة، عليها اسم "طريق الحرية"، وتحته الرمز البريدي. وأصبح اسم جمال عبد الناصر مقتصرا على الشارع الذي يبدأ من فيكتوريا وينتهي عند المنتزه.

العظمة لله وحده

في منطقة رشدي، وفي شارع يقطع طريق الحرية،- أقصد طريق الزعيم جمال عبد الناصر -؛ وفي عمارة كبيرة مشهورة بعمارة هيكل، في هذا المكان لافتة باسم الفريق سليمان عزت(١)، وتحتها جملة (أمير البحار الأعظم) هذه اللافتة يمكن رؤيتها وأنت تعبر طريق جمال عبد الناصر، ولو دققت النظر من سيارتك سترى لافتة صغيرة فوقها؛ لونها أخضر مثل لون اللافتة الأصلية، ومن نفس نوع الصاج المصنوع منه اللافتة، مكتوب عليها (العظمة لله وحده)، ولو سرت في ذلك الشارع الذي ينتهي إلى البحر، ستجد العديد من اللافتات التي تحمل اسم الشارع وفوق كل لافتة؛ لافتة صغيرة مكتوب عليها (العظمة لله وحده).

ناس لم يعجبهم أن يكون سليمان عزت الأمير الأعظم للبحار، فجاءوا بسلم وصعدوا فوقه وعلقوا هذه اللافتات الصغيرة، أية فوضى هذه، ألا يذكّركم هذا بما فعله إسماعيل يس في فيلم العتبة الخضرة، عندما خلع لافتة ميدان العتبة الخضرة، وعلق بدلا منها لافتة ميدان عديلة. لكن إسماعيل يس قبض عليه عسكري وسلمه

لمأمور قسم الشرطة، لكن هؤلاء فعلوا ما فعلوا دون أن يعترضهم أحد.

بالشركة التي كنت أعمل بها كان غير مسموح بتعليق أية لافتات على جدران الشركة؛ إلا إذا قرأ رئيس الشركة الإعلان ووافق على تعليقه، ولافتات الشوارع متروكة لكل من يريد أن يعلق عليها. لا أعرف من المسئول عما حدث، وهل من حق الناس العاديين أن يعلقوا لافتات هكذا دون إذن أو موافقة من الحكومة؟.

ومعروف أن الشوارع تسمى باسم الشخص، مذكورا لقبه إذا كان موجودا، دكتورا أو حاملا لرتبة عسكرية، وقد أخبرني الصديق صبري أبو علم(٢) بأنه قابل ابنا من أبناء المرحوم الفريق سليمان عزت وسأله عن هذا اللقب، فأخبره بأن رتبة والده في البحرية، يقابلها لقب (أمير البحار الأعظم لدى الإنجليز).

شارعان في الإسكندرية باسم شريف

كان صلاح سالم أول من مات من أعضاء مجلس قيادة الثورة، فكان لا بد أن ينال الاهتمام والتقدير، فأطلقوا اسمه على شوارع كثيرة في كل مدن مصر وقراها، وغيروا اسم الشارع الذي كان يحمل اسم شريف بشارع صلاح سالم، ثم اكتشفت "لجنة تسمية شوارع الإسكندرية" أن شريف هذا كان وطنيا ويستحق أن يُخلَّد بتسمية شارع باسمه، فجاءوا إلى شارع طويل آخر يبدأ من محطة مصر، وينتهي عند مينا البصل، وتمر فيه ترام البلد؛ وكان اسمه شارع الخديو، وأطلقوا عليه اسم شارع شريف، لكن الناس إلى الآن

تطلق اسم "شريف" على شارعه القديم الذي تَسمَّى باسم شارع صلاح سالم.

المجاملة في إطلاق الأسماء على الشوارع

قلت إن في الإسكندرية لجنة لتسمية شوارع الإسكندرية، تجتمع هذه اللجنة لتقرر الأشخاص الذين سيطلقون أسماءهم على شوارعها، وطبعا لديهم قواعد وشروط لهذا الاختيار، أحيانا أجدهم يعلنون عن تسمية شارع باسم شخص لا يستحق هذا، المفروض أن يكون صاحب هذا الاسم قد أدى أعمالا جليلة للوطن جعلته أحق بهذا التكريم، لكنى أجدهم يعلنون عن إطلاق اسم عضو مجلس شعب في منطقة غيط العنب؛ لم أجد له عملا يستحق أن يخلد من أجله، فهو عضو مجلس شعب عادي جدًا، إلا إذا اتخذت الدولة قرارا بإطلاق أسماء أعضاء مجلس الشعب على الشوارع بعد موتهم طبعا، بصرف النظر عما فعلوه من جهد لصالح الوطن.

أو ما حدث عندما تدخل مسئول في محافظة الإسكندرية؛ فجعلهم يطلقون اسم والده على شارع مشهور في منطقة الحضرة، والده كان مستشارا عاديا في المحاكم، مثله مثل مئات المستشارين والقضاة، والأمثلة على ذلك كثيرة ومثيرة.

شارع دانينوس في غيط العنب

دانينوس مهندس من أصل يوناني كان يعيش في حي غيط العنب مثل الكثيرين من اليونانيين الذين اعتبروا أنفسهم مصريين،

وكانوا يعيشون في الأحياء الشعبية، خاصة في الإسكندرية. ذلك المهندس كان له الفضل في إقامة المشروع العظيم، السد العالي.

ويقول الرئيس محمد أنور السادات في كتابه "البحث عن الذات"، (وعندما تعود ذاكرتي إلى تلك الأيام، أرى أمام عيني المهندس اليوناني الأشعث الشعر، الزائغ العينين الذي كان يتردد علينا في القيادة في أي وقت وبدون سابق ميعاد، كان اسمه على ما أذكر " دانينوس "، وكان في كل مرة يقتحم مقرنا؛ يتفوه بعبارات محمومة، فحواها دائما فكرة واحدة وهي أن النيل عند منطقة أسوان يجب أن يغلق بسد عال).

هذا الرجل الرائع لم تطلق محافظة الإسكندرية اسمه على واحد من شوارعها، رغم ما قدمه، (بصراحة، ألا يستحق هذا أن يطلق اسمه على شارع من شوارع الحي الذي كان يعيش فيه ـ غيط العنب ـ بدلا من عضو مجلس الشعب الذي مات دون أن يفعل شيئا يذكر؟) المهم أن أناسا تبرعوا وعلقوا لافتات مكتوبة بخط عادي جدا باسم دانينوس.

وحكى لي الصديق صبري أبو علم بأنه في تجواله بحي غيط العنب فوجئ بهذه اللافتات، فاستدعى ألبير أبو القاسم (٣) الذي وهب عمره كله من أجل تخليد اسم دانينوس صديقه، فرافق صبري أبو علم ليرى ما حدث. وقرر ألبير أن يقدم مكافأة لمن فعل هذا. فذهبا إلى بقال معلقة بجوار دكانه لافتة من هذه اللافتات، وسألاه: من فعل هذا؟ فصاح البقال في خوف وارتعاش: والله يا بك أنا ماليش دعوة مش أنا اللي عملت كده.

فشرحا له موقفهما وأنهما غير غاضبين مما حدث، وإنما هما يباركانه. لكن الرجل ظنها محاولة من قبل المسئولين للإيقاع به، وجعله يقول ما عنده، وأصر الرجل على موقفه، وأكد بأنه لا يعرف شيئا عما حدث؛ وعادا دون فائدة.

ولا تزال اللافتات التي كتبها الأهالي لتخليد اسم صاحب فكرة بناء السد العالي معلقة فوق جدران البيوت هناك.

شارع المعلم يعقوب

هل تصدقون أن تسمي دولة شارعًا باسم خائن لها، أعان المحتل الفرنسي على أهل بلده، وساعده للوصول إلى الذين يقاومونه ويختبئون في جبال الصعيد التي لا يعرف المحتل كيف الوصول إليها إلا بمعاونة أهل البلد، ذلك هو المعلم يعقوب، والشارع الذي يحمل اسمه يبدأ من شارع محسن باشا الشهير بحي محرم بك، وينتهي في شار المهدي العباسي.

وقد كتب "مينو" إلى قائده نابليون: إنني وجدت رجلاً ذا دراية ومعرفة واسعة اسمه المعلم يعقوب، وهو الذي يؤدي لنا خدمات باهرة منها تعزيز قوة الجيش الفرنسي بجنود إضافية من القبط لمساعدتنا.

إن كنتم لا تعرفون من هو المعلم يعقوب، فهو مثل سعد حداد الذي أعان الإسرائيليين المحتلين على أهل بلده لبنان.

شارك المعلم يعقوب في القتال الميداني بالصعيد، حيث قاد فصيلة من الجيش الفرنسي ضد قوة مملوكية في أسيوط واستطاع أن يحقق الانتصار ويهزم المماليك مما دفع ديزيه - القائد الفرنسي - إلى أن يقدم له تذكارًا عبارة عن سيف منقوش علي مقبضه.

واشتكى الأقباط المعلم يعقوب للبابا الذي كان على خلاف معه، بسبب: زيه وحركاته وسلوكه المخالف لما اعتاد الأقباط عليه، ولزواجه الثاني بعد وفاة زوجته؛ من مسيحية سورية من ملة أخرى؛ لم تعترف الكنيسة بهذا الزواج، وأيضا لدخوله الكنيسة بالحصان والسيف. أضيف إلى ذلك موقفه المؤيد للاحتلال الفرنسي.

الهوامش

١ ـ قائد القوات البحرية المصرية حتى عام ١٩٦٧.

٢ ـ شاعر سكندري من مواليد ٣ ديسمبر ١٩٤٢.

٣ ـ مثقف من أصل لبناني كان يعيش في القاهرة وكان صديقًا لدانينوس.

طقوس الزواج والولادة والموت في الأحياء الشعبية بالإسكندرية

بدأت كتابة هذه المقالة منذ سنوات طويلة جدًا، تقريبًا في عام١٩٨٠، وكنت وقتها أذهب إلى بيت المستشار فوزي عبد القادر الميلادي(١) في حي بحري بعد كتابة قصة قصيرة، أو جزء من رواية، أو مقالة، وأقرأ عليه ما كتبته فيصحح لي الأخطاء النحوية. وقرأت عليه بداية المقالة التي قسمتها إلى ثلاثة أقسام، ما يحدث في حالة الموت، ثم حالة الزواج، ثم حالة الولادة، فاقترح الميلادي أن أبدأ بالزواج، ثم الولادة، وأختم بالموت. وكتبت كما أراد، وذهبت وقرأت عليه الجزءين الأول والثاني، وما إن بدأت في قراءة الجزء الثالث؛ عن الموت؛حتى صاح: أرجوك لا تقرأ أكثر من هذا.. فقد اكتشفت أنه يخاف من سيرة الموت.

وظلت صفحات هذه المقالة معي، تختفي عن عيني لسنوات، ثم أجدها وأعيد قراءتها، ثم تختفي ثانية. حتى قررت أن أعيد صياغتها الآن.

١ ـ الخِطْبة:

كانت العادة في الصعيد:إذا أراد شابا أن يخطب فتاة؛ أن يذهب لزيارة أهلها مع أبيه وأقاربه (أو ولي أمره إذا لم يكن والده حاضرًا) ويكون الحديث للوالد ـ أو ولي الأمر ـ ولا يسمح للعريس بالتحدث طالما أن أقاربه ـ الأكبر سنا ـ حاضرين؛ فإذا أعجبتهم العروس، يضع الوالد مبلغا كبيرا من المال في صينية الشاي الذي تقدمه العروس (يختلف المبلغ من وقت لآخر، حسب الحالة الاقتصادية للبلدة) ثم يقوم ولي الأمر بعد ذلك بتقديم أقمشة تكفي لصنع ثوب أو ثوبين للعروس وأمها وأخواتها، ويعتبر هذا شبكة للعروس. لكن عندما وفد أهلي إلى الإسكندرية؛ تغيرت عاداتهم، وصارت وسطًا بين ما كانوا عليه في الصعيد، وما هو متبع في أحياء الإسكندرية الشعبية، فموضوع إهداء الأقمشة لم يعد مناسبا في الإسكندرية، ويتم الاتفاق على موعد الخطبة، ويقام حفل لهذا في بيت العروس، ولابد أن يكون في بيت العروس، وإذا كان البيت لا يصلح لهذا ـ لأي سبب من الأسباب؛ يقام في بيت أحد أقاربها، وتكون تكاليف الحفل على حساب العريس، بما فيها فستان عروسته وحذاؤها وأكسسواراتها أيضا. ثم يقوم العريس بتقديم الهدايا للعروس في المواسم الإسلامية (ليلة رأس السنة الهجرية، وعاشوراء، ومولد النبي، والإسراء والمعراج، وليلة النصف من شعبان، والعيدين) وتكون الهدايا عادة من نوعين:

كان يكتب القصة والمسرحية، من أعماله بنت العم وليالي العمر وعندما يأتي الربيع، كان يشغل وظيفة نائب رئيس مجلس الدولة.

الأول: هدية للعروس، إما أن تكون شخصية؛ كالملابس والحلي.. إلخ، أو من مستلزمات البيت، كأدوات المائدة ولوازم السفرة والمطبخ والمفروشات.. إلخ

الثاني: هدية لأهلها، كالحلوى والفاكهة.

ويتم الاتفاق على المهر ونوع الجهاز، لكن هناك أساسيات لا تستلزم اتفاقا، ولا تقبل جدلا، فمن المسلَّم به أن الجهاز (حجرة النوم والسفرة.. إلخ) على حساب أهل العروس. وأدوات المطبخ والنجف على العريس. وفستان زفاف العروس على العريس، أو يدفع ثمنه (ولأن تكاليف الأثاث تزداد يوما عن يوم؛ ووالد العروس يتحمل العبء الأكبر منها، بدأت هذه العادات في التراجع شيئا فشيئا،فيتحمل العريس الآن بعض الأعباء، فتلزمه بعض الأسر بدفع ثمن المفروشات من أقمشة وقطن وأجرة المنجد، وشراء بعض أدوات المطبخ، وبمرور الوقت ستتحول إلى عادة).

وتظل الأسرتان (أسرة العريس والعروس) في غناء إلى أن يتم حفل الخطوبة، فتجتمع النسوة وبنات العائلة كل مساء، ويقمن بالدق على طبلة ويغنين ويرقصن.

وأذكر فتيات صغيرات كن مشهورات بهذا الغناء، وقد رأيتهن يجلسن في دخلة بيت جدتي ـ قبل حفل خطوبة ساكنة من سكان الدور الأرضي ـ ويغنين:

شرشر حليمة بان

وترد باقي البنات قائلات: شرشر حليمة بان.

بإيحاء جنسي واضح.

٢ ـ العفش (الشوار):

وهو خروج الأثاث من بيت العروسة إلى بيت العريس، وهو من الطقوس المهمة في الزواج، مثله مثل الخطوبة والزواج، فيدعون إليه أقاربهم وجيرانهم، ويتم عادة بعد صلاة العصر، فيجلس المدعوون على مقاعد بجوار بيت العروسة، ويقدمون إليهم المشروبات (شربات، أو زجاجات قازوزة) وتعزف "مزيكة حسب الله"، التي اقتصر عملها الآن على حفلات خروج العفش. ويخرج العفش، كل جزء على سيارة نصف نقل، ويصل بهم الأمر؛ بأن يأتوا بنجار لكي يقيم الدولاب ليقف شامخًا فوق عربة نصف نقل وحده، وبعد أن يدوروا به الشوارع القريبة؛ يقوم النجار بفكه لكي يصعدوا به إلى شقة العريس ثم يجمِّعه ثانية في الشقة.

وقد أراد عمي ـ والد زوجتي ـ أن يخرج عفشي بـ "مزيكة حسب الله"، وأنا في الأساس رافض عرض العفش على الناس، فما شأنهم بما اشتريت لبيتي؟!، لكنني لم أستطع تنفيذ ما أريد، فعمي يريد أن يرى الناس ما اشتراه لابنته، ومدى جودة الأثاث وغلو ثمنه لكنني تمسكت بأن تسير العربات دون "مزيكة "، وسارت العربات التي تجرها الخيول، (لم تكن سيارات النصف نقل قد انتشرت كما هي

الآن) وشباب الأسرة يسيرون أمامها، كل منهم يمد ذراعيه حاملاً طقم أكواب أو فناجين، وأرادوا أن أحمل طقمًا مثلهم فرفضت بإصرار، لكن زميلي في العمل - الذي أصبح بعد ذلك المدير العام لإدارتنا - وافق أن يحل محلي في هذا.

٣ - ليلة الحِنَّة:

يفضل سكان الأحياء الشعبية في الإسكندرية إقامة حفلات الزواج في الصيف،حيث لا تسقط الأمطار.

تقام ليلة الحنة أمام بيت العريس، إذ يضع متعهد الفِرَاشة الدكك وسط الشارع، ويضع قطعة قماش خلف الدكك ومقاعد كثيرة متراصة، وتأتي الفرقة الموسيقية بعد التاسعة أو العاشرة مساء لتعرض فنونها حتى صباح اليوم التالي، ويقوم المدعوون بتقديم مبالغ (نقوط) للفرقة الموسيقية، مجاملة للعريس وأهله، ويجلس المدعوون - عادة - على هيئة مجموعات، وكثيرا ما يقدم أهل العريس المشروبات، ويعدون الشِّيَش الصغيرة (يستأجرونها من متعهد، مكونة من برطمانات زجاجية، بداخل كل منها قطعتان من الغاب، إحداهما قصيرة، يوضع في آخرها "الحجر" وفوقه الفحم الأحمر والمعسل، ويسحب المدعوون (النَّفَس) من الغاب الأكثر طولا، وكلما كان العريس غنيا؛ أسرف في تقديم هذه الأشياء).

ثم تتوقف الفرق الموسيقية، ويسدل الستار، وينقل الميكرفون إلى جوار بيت العريس حيث يرقد العريس فوق حاشية، بجانب باب بيتهم وبجانبه والده، ويقوم الحلاق بوضع الحنة فوق قدمَيْ ويَدي

العريس، وتوضع الحنة في صينية والشموع حولها من كل جانب؛ يرقص بها رجل، متخصص في النداء على نقطة والد العريس، ثم يبدأ المدعوون بتقديم النقطة وتكون عادة مبالغ أكبر مما أعطيت للفرقة الموسيقية)، ويشهر الرجل المبلغ المقدم ويعيد ويزيد به، فهم يدفعون له مبالغ صغيرة نظير ذلك. تكتب المبالغ التي دفعت لوالد العريس في دفتر، ليقوم بدفع أكبر منها في المناسبات (من العادات المألوفة ألا يدفع نفس المبلغ الذي دفعه له الآخر، وإلا اعتبر هذا رغبة منه في إنهاء هذه العلاقة) بعد ذلك يحملون العريس، الذي لا يستطيع السير على قدميه الملطختين بالحنة، وتستأنف الفرقة الموسيقية عملها من جديد.

٤ ـ الزفاف:

يقام السرادق في اليوم التالي ليوم الحنة أمام بيت "العروس" وهو سرادق مغلق من كل الأطراف، بحيث لا يرى أحد ما يحدث داخله، ويقف عدد من أهل العروسين، يمسكون طرفَيْ قماش السرادق، ولا يسمحون إلا بدخول السيدات، أو الرجال المقربين جدا للعروسين.

ويذهب العريس مع أصدقائه وأقاربه بالسيارات إلى الكوافير ـ مصفف الشعر ـ ليأتي بعروسه من هناك، حيث عليه أن يدفع أجرة تصفيف الشعر لها ولأقاربها وصديقاتها،وترتدي العروس ـ وقتها ـ فستانا أبيض وطرحة وبعض الأكسسوارات يستأجرونها من الكوافير، (وفي الوقت الذي أتحدث عنه، كانت العروس ترتدي

فستانين، كل منهما له لون مختلف، ويرسل الكوافير من تشرف على ارتدائها للفستان، ومراجعة التجميل) وتصل السيارات إلى مكان الحفل، وتدخل العروس السرادق، فتجلس في الكوشة المقامة وسط السرادق، وعليها أن تجلس فيها كالدُّمْية، فلا تتحرك كثيرا، ولا تسرف في الابتسام، فكلما كانت جامدة كالتمثال؛ نجحت في مهمتها، وتحدثت النسوة عنها بالخير.

أما العريس فيذهب إلى المكان المجهز له ليستحم ويرتدي ملابسه التي سيحضر بها الحفل، ويكون ـ عادة ـ شقة قريب أو صديق يدعو فيه عددا كبيرا من أصدقائه.

يتناول العريس ـ أحيانا ـ مع أصدقائه بعض المشروبات الرُّوحية لكي تعينه على ألا يخجل من عروسه عندما ينفرد بها، وربما تكون هذه المرة الأولى التي يذوق العريس فيها هذه المشروبات، أو قد تكون الأخيرة أيضا.

ويغني أصدقاؤه ويزفونه من وقت لآخر بكلمات معروفة؛ تقال دائما في مثل هذه المناسبات مثل:

صلي صلي على النبي صلي والللي ما يصلي أبوه أرمنلي

بنتك حلوة يا عم الحاج جوزهالي يا عم الحاج

ياما انت صغير حلو يا عريس

عروستك حلوة حلو يا عريس

**

معرفشي أدق الكسبرة

خديني عبد أبوكي

روح يا بتاع "الويكة" وأمي عاملة فطير

ياختي الناموس قرصني هاتلي عنب وتين.

وأحيانا لا يجد العريس مكانا يقضي فيه وقته هو وأصدقاؤه إلى أن يحين موعد ذهابه إلى عروسه، فيتفق مع قهوة من المقاهي القريبة من بيت عروسه، فتجهز القهوة صينية محاطة باللمبات الملونة وفوقها أكواب الشربات، (كل المقاهي في ذلك الوقت كان لديها مثل هذه الصواني) وتعلق لمبات في الركن الذي سيجلس فيه العريس هو ومن معه.

وقد جاء شاب غريب للزواج من فتاة من حيِّنا، وذهبت ـ وأنا صغير ـ مع صديق يسكن قريبًا من بيت الفتاة؛ إلى القهوة التي سيزف العريس فيها .كان العريس مرتبكا، ويبدو أنه أول مرة يرتدي ملابس إفرنجية، وقدم ساقي القهوة الطلبات التي سيحاسب عليها شقيق العريس آخر الجلسة، وكلما اقترب الساقي من صديقي؛ يصيح طالبا اثنين قهوة، ثم اثنين كاكاو، ثم اثنين سلحب.. إلخ، حتى امتلأنا من الشرب، وشقيق العريس يتابعنا في ضيق، فهو الذي سيدفع ثمن كل هذه الطلبات.

وفي قرابة العاشرة؛ يركب العريس ومن معه السيارات وسط التهليل، تسبقهم الموتوسيكلات التي يستأجرونها خصيصا لهذا

الحفل، ويؤدون بها ألعابا بهلوانية. ثم يذهبون إلى السرادق، ويكون الرجال من أهل العروسين في انتظارهم، يحيطون بالعريس الذي يقف وسط زميلين يرتديان ملابس تشبه إلى حد بعيد الملابس التي يرتديها، ويكونان في طوله تقريبا. ويزفونه ثانية بكلمات مثل التي قيلت في البيت الذي كان يرتدي فيه ملابسه.

وتقام وقتذاك بعض الألعاب؛ كإشعال دائرة من النار حول العريس وصحبه، والرقص حول النار، وصنع سجادة فوق الأرض مصنوعة من نشارة الخشب الملونة بالعديد من الألوان، يصنعونها بمهارة فائقة. وبدخول العريس للسرادق ينتهي الحفل، حيث أن النسوة اللاتي لم يرين العريس من قبل، ينتظرن بشوق لرؤيته، لمعرفة أي نوع من الرجال ذلك الذي ستتزوجه العروس التي يعرفونها ويعرفون أهلها.

وقد حدث يوم زفافي حكاية طريفة، إذ كان الشباب الذين يزفونني لا يريدون أن ينتهوا من الزفة، وشاب نصفه الأعلى عاريا، يهتف ويصيح، وجسده ينز عرقا، وأنا أبعد جسده بيدي، وهو يصيح، بلغته المطوطة: العريس مستعجل العريس مستعجل.

وجاءني رجل طويل أول مرة أراه، دخل وسط الزفة، وصافحني مهنئًا، وقال لي:

- أنا ابن عم أم العروسة. وأريد منك خدمة. زوجتي لا تريد أن تغادر المسرح قبل أن تراك، وأنا أسكن القباري، والوقت متأخر، فمروءة تدخل المسرح الآن لكي تأتي زوجتي لنعود إلى البيت.

كنت مستعداً أن أنفذ طلبه، فأنا مثله أريد أن تنتهي هذه الزفة التي طالت، لكن أقاربي وأصدقائي رفضوا طلبه وسخروا منه. وأطالوا في الزفة.

ويركب العريس والعروس سيارة وخلفهما باقي السيارات الأخرى، فيذهبون إلى مسجد سيدي أبي العباس المرسى، فيطوفون حوله عدة دورات، حيث ينتظرهم بعض الرجال يحملون مباخر يبخرونهم بها.

تسرع أم العروس - رغم مشاغلها - مع أقارب لها إلى بيت الزوجية الجديد، يتضعن في شقة العروسين طعاماً مجهزاً يسمونه "الوسواسة" يتركنه لهما فوق المائدة.

وتنتظر النسوة حضور العروسين إلى سكنهما الجديد، من كثرتهن يجلسن خارج الشقة. قبل أن يدخل العروسان باب الشقة؛ يذبحون أمامهما "ديك البوابة" تبركا. وتغلق الشقة عليهما وعلى قليل من النسوة ليساعدن العريس على فض بكارتها، وتقوم النسوة بدق الأبواب بصوت مرتفع جدا، ويغنين أغنيات لهذه المناسبة، وذلك حتى لا يسمع الجيران صراخ العروس (زالت هذه العادة نهائيا، ولا أعتقد أن هناك من يلجأ إليها الآن).

تظل العروس تأكل من طعام أمها، أو أم زوجها، حتى اليوم السابع للزواج، إذ يقام حفل بهذه المناسبة يسمى (السبوع)، يأتي فيه الأقارب، يحملون الهدايا للعروسين، وتكون عادة سلالا بداخلها السكر والشربات، والصابون المعطر، والأرز والمكرونة، وتغطى

السلال بمفارش مطرزة وردية اللون، ويدفع الرجال للعروسين (نقطة) ثم تقدم الأطعمة وتكون عادة من اللحوم.

وعلى العروس في الأحياء الشعبية، خاصة التي جاءت من الصعيد؛ اتباع الآتي:

١ ـ عليها ـ على قدر المستطاع ـ أن تخفي نفسها عن عيون الجيران الذين يتشوقون لرؤيتها لمدة تصل للشهور الكثيرة.

٢ ـ ألا تخرج من بيت زوجها لزيارة أهلها إلا بعد أن تلد،أو بعد عام من زواجها إذا لم تلد خلال العام.

٣ ـ أن تحترس العروس من أن يدخل عليها طفل أو طفلة تم ختانهما. أو تدخل عليها امرأة متزوجة حديثا ـ مثلها ـ ما لم يمر على الختان أو الزواج شهر هجري كامل، وإلا لن تنجب.

وتنتهي مشكلات العروس في هذا الشأن وقلقها بعد مرور شهر هجري، فتحرص على الصعود إلى سطح البيت الذي تسكنه لمشاهدة هلال الشهر العربي، بعدها لا يهمها شيء.

٥ . طقوس الولادة

بعد تسعة أشهر أو أكثر للزواج تستعد العروس للولادة، ويتحمل أهل العروس تكاليف الولادة كلها، وذلك في الطفل الأول فقط. وتقيم الزوجة ـ أحيانا ـ لدى أهلها في شهرها الأخير ـ قبل الولادة ـ ولعل هذا تحسبا للمعتقد القائل بأن الزوجة التي يحضر زوجها أول ولادة لها؛ لن تستطيع أن تلد ثانية إلا بحضوره. ويحدث

أن يُستدعي الزوج ـ الذي حضر ولادة زوجته الأولى ـ من البلدة التي سافر إليها إذا اقترب موعد ولادة زوجته؛خشية أن تتعب في الولادة في غيابه، بل يستدعى أيضا حتى لو كانت زوجته تلد في مستشفى ولادة وحولها الأطباء.

وإذا تعسرت الولادة وكان الزوج حاضرا عليه أن يخلع ثوبه ويرتديه بالمقلوب حتّى تتيسر الولادة.

وقد عرفت زوجين كانا على درجة عالية من الوفاق والاتفاق، كان الرجل طيبًا، وسيمًا، وهي جميلة تشع أنوثة، وتهتم بزينتها، وقد تزوجا في الصعيد وجاءا لدواعي العمل إلى الإسكندرية. وكان الزوج يحبها ويخضع دائما لإرادتها، وقد حضر يوم ولادتها، كانت الداية مع باقي النسوة في حجرة وهو في حجرة مجاورة لا يراهن ولا يرينه، وتعسرت ولادتها، فصاحت وهى تئن من الألم: يا أحمد، يا أحمد.

وأجابها من مكانه: نعم يا زينب.

ـ اخلع قفطانك.

تساءل أول الأمر: ـ أخلع قفطاني ليه؟!

صاحت وهي تبكي: ـ اخلع قفطانك واسمع الكلام.

فخلعه في ضيق، ورماه على السرير المجاور له: أهه يا زينب.

لكن المولود لم ينزل، والداية حائرة، فصاحت ثانية:

- البسه بالمقلوب.

فارتداه بالمقلوب، لكن المولود لم ينزل أيضا، فصاحت وهي تئن:

- اخلعه تاني يا أحمد.

فخلعه ورماه في ضيق. فصاحت وهي تتألم: البسه تاني يا أحمد.

وظلت هكذا، تأمره بأن يخلعه ويرتديه، مرة من الأمام ومرة من الخلف حتى نزل الولد الذي كانا ينتظرانه منذ وقت طويل.

٦ - الرضاعة:

بعد الولادة يجب مراعاة بعض الأسباب التي تسبب نضوب اللبن في ثديَي الأم، منها:

- إذا دخل عليها أحد بعد عودته من لدى الحلاق مباشرة.
- إذا دخل عليها أحد بعد عودته من المدافن مباشرة، أو بعد رؤيته لجنازة تسير في الطريق.
- إذا دخل عليها أحد يحمل لحمًا أو بعض الخضراوات التي تسبب هذا كالباذنجان مثلا.

وقد رأيت رجلا ينادي على زوجته الوالدة منذ أيام قلائل، وهو يقف أمام باب البيت يحمل لفة اللحم، فخرجت هي إلى أرض الشارع، ودخل قبلها، ثم تبعته.

وامرأة تلوم أخرى لأنها دخلت عليها بالباذنجان، فترد الأخرى:

- اطمئني، فما دام الباذنجان مقطعا فلا يضر.

وتظل المرأة التي ولدت حديثا قلقة حتى يظهر الهلال، فتصعد إلى أعلى السطوح لتراه.

وعليها أن تراعي الآتي أيضا:

● إنها لو استخدمت السكين في تقليب أي شيء على النار، سيتسلخ ما خلف أذنيَّ طفلها.

● وإذا لم تدق الهاون عاليا أمام الطفل في "السبوع"، سيسمع الطفل بصعوبة.

● إذا مشَّطت شعر الطفل بالمشط وهو صغير؛ سيصبح الطفل عندما يكبر أسنانه بارزة (بضَبّ) .

وعندما يكبر الطفل قليلا؛ عليها مراعاة الآتي:

● ألا تجعله يبكي في الحمام؛ حتى لا يصاب بالأذى، لأن الحمام مسكون بالشياطين.

● ألا تدفعه على عتبة الباب، أو عتبة الشقة لأن العتبات عادة ما تكون مسكونة أيضا بالشياطين.

● إذا تأخر الطفل في المشي، تعقد ساقاه بخيط رفيع ويقوم أول خارج من المسجد - بعد صلاة الجمعة - بفك الخيط، ثم ترمي الحمص والحلوى للأطفال الكثيرين الذين يتجمعون وقتذاك أمام الجامع.

وقد فعلنا هذا مع أخي الصغير، فقد تأخر في المشي نتيجة وقوعه من فوقه "سندرة" الشقة، فحملته أنا وأختي الكبيرة، ووقفنا أمام جامع سلطان، وقد كان بابه الخلفي في آخر الشارع الذي نسكنه. وفكه أول خارج من هذا الباب، ورمينا ما معنا من حمص وحلويات على أطفال الشارع الذين جاءوا معنا.

● إذا تأخر في النطق: تضع الأم الماء في بيضة حمامة: فقست حديثا ويشرب ماءَها.

وقد عانت جدتي كثيرا، فقد مات أطفالها صغارا (عدد كبير جدا من النساء في حيِّنا عانين طويلا من موت أطفالهن في صغرهم). كان خالي يكبُرني بعام ونصف العام تقريبا، فخافت جدتي أن يموت طفلها مثل إخوته، فسعت حتى أحضرت له لبن حمير، فقد وصفوه لها لكي يعيش، وأحضروا لها لبن كلاب، ولبن غجر. (أعرف كثيرين شربوا لبن الحمير والكلاب والغجر في حينا). وقد كان خالي مدللا، فهو الطفل الوحيد، خاصة بعد موت أمي وهو ما زال طفلا صغيرا، وكان عصبيًا، يتجاوز كل الأشياء في غضبه، وجدتي تصيح: اعذروه، أصله شارب لبن حمير. ولا أدري ما صلة شرب لبن الحمير بهذه العصبية ؟!

٧ـ التأخر في الحمل

يحدث كثيرا أن تتأخر الزوجة في الحمل، فتدور تبحث عن أسباب ذلك، وعادة ما تبدأ بالذهاب إلى المنجمين والدجالين الذين ينصحونها بأشياء سخيفة لا تأتي بخير أبدا.

وقد حكى لي أحد الأصدقاء، بأن أمه قد تأخرت كثيرا في الحمل، فنصحتها امرأة بأن تذهب إلى عمود السواري لتحل مشكلتها، وذهبت معها إلى حارس معبد "السرابيوم" المجاور لمدافن عمود السواري. ودخلت أم صديقي مع مجموعة من النساء يبحثن عن "الخلفة" وسار أمامهم الحارس حاملا شعلتين ملتهبتين تحت الأرض، والنساء خلفه، حتى وصل لمنطقة يعرف أن فوقها تسير ترام كرموز، وعندما سمع صوت الترام تقترب أطفأ الشعلتين فجأة، فأظلم المكان فصرخت النسوة من ظلام المكان، ومن الصوت الرهيب الذي تحدثه الترام التي تسير فوقهن.

وبعدها بتسعة أشهر جاء صديقي، لذلك يسمي نفسه ابن "معبد السرابيوم".

وأعرف قريبة لي، لا تحبل إلا إذا سافرت في القطار. تسافر مع زوجها إلى الصعيد، يقيمان معا عدة أيام، وتعود حاملاً، صوت القطار وهزاته تعينها على الحمل.

٨ - الختان:

تحدثت في مقالة سابقة عن خلف الله الحلاق المشهور في غريال الذي يسأل الأطفال الذين يحلقون عنده سؤالين: أولهما: ابن مين؟ ليعرف والد الطفل. والثاني: اتطاهرت والا لسه؟ فلو لم يتم ختانه يتصل بوالده ويحضه على أن تتم عملية الختان بسرعة. وذلك لمصلحة الولد، فكلما تأخر في الختان؛ كان هذا عليه صعبًا.

وبعد موت أمي في عام ١٩٥٦ انتقلنا إلى بيت جدتي لأمي في حي غريال، وكان والدي ما زال في البيت الذي ماتت فيه أمي، والذي أصرت أمها ألا تدخله ثانية. وكان أخي في السادسة من عمره تقريبا، وانشغلنا عن أمر ختانه بما حدث لأمي. وصحا من نومه ذات صباح فإذا به قد تم ختانه، وأعلنت جدتي: "إن الملائكة طاهرته" واعتبر والدي ذلك كرامة من كراماته، فهو كان قلقا من أجل هذا الولد الصغير اليتيم، فإذ بالعملية تتم وقت النوم دون ألم ودون إراقة دماء. وأحس أخي بالألم بعد عدة أيام وذلك لأننا لم نلتزم الصمت حيال ما حدث (هكذا قالت جدتي)، فأخذته إلى وحدة علاج الطلبة في شارع الفراعنة، وعرضته على طبيب شاب، قائلا له: إحنا لقيناه متطاهر في الصباح، الملايكة طاهرته.

فصاح بي الطبيب الشاب غاضبا: امشي يا ولد شوف مين طاهره.

ولأن أختى الكبيرة تؤمن كثيرا بالغيبيات، فقد أكدت بأن أخي عندما يكبر ويتزوج ستكون كل ذريته من الذكور، والغريب في الأمر أن هذا حدث، فقد أنجب أولادا، وأولاده أنجبوا أولادا أيضا. وما زالت أختي مُصرَّة على إنه هو وأولاده لن ينجبوا سوى الذكور.

حكاية نقطة الدم

كانت عمتي تسكن شقة مع أم عيسى المسيحية، وابن عمتي وعيسى ولدا في أسبوع واحد، وتم ختانهما معا، جاء "خلف الله" من دكانه القريب جدا من بيتهما، وختنهما.

اتفقت امرأة في البيت - تأخر حملها - مع "المطاهر" على أن يعطيها قطنة بها نقطة من دم عيسى المسيحي، لكي تخطّي فوقها فتحمل، وفعل "المطاهر" هذا، ربما نظير مبلغ أعطته له، وعندما علمت عمتي؛ ذهبت إلى المرأة ولامتها، فأقسمت بأن نقطة الدم ليست من جرح ابنها، وإنما من دم الولد الثاني، وأيقن الجميع أن عيسى المسيحي لن ينجب نظير ذلك، ثم انتقلت أم عيسى إلى بيت آخر، لكنها كانت تزور عمتي، وعمتي تزورها، وكبر عيسى، وكان يجري بعض الألعاب البهلوانية مع آخر أمام القهاوي، ثم يجمعان النقود من الناس، وبعد ذلك تعلم ألعاب الحواة وصار حاويا، لكن بعد أن تزوج ابن عمتي الذي تم ختانه مع عيسى - لم تحمل زوجته رغم مرور أكثر من عام. فتذكرت عمتي قصة نقطة الدم التي خطت المرأة فوقها، وأكدت للجميع بأن المرأة أخذتها من جرح ابنها. وهذا هو سبب تأخر حمل زوجته؛ خاصة أن البعض قد أكد لها بأن عيسى هذا قد تزوج وأنجب. والحل هو أن تجده، لكي تأخذ منه نقطة دم من إصبعه، يخطي ابن عمتي فوقها. ولم يجدوا عيسى، فقد سافر وعاش في القاهرة، يعرض أعماله البهلوانية هناك. وفجأة حملت زوجة ابن عمتي دون نقطة دم، ولديها الكثير جدا من الأولاد والبنات. وما زال عيسى يزورهم، ويضحك من حكاية نقطة الدم.

٥ - الوفـــــاة

كنت، ولا زلت أدهش لإقامة السرادق وسط شوارع الإسكندرية يوم الجنازة ويوم الأربعين وفي ذكرى الوفاة، حيث يقام سرادق كبير

يتكلف مبالغ كثيرة، حتى لو كان أهل المُتوفَّى فقراء، فقد اقتضت العادة أن يقام السرادق ولو اقترض أهل المتوفى ثمن إقامته، ولو كان قد ترك وراءه أطفالا صغارا في أشد الحاجة إلى المال.

وأذكر عندما عملت في شركة الورق عام ١٩٦٨، أن جاء أحد موظفي المصنع طالبا سُلفة ليقيم سرادق لذكرى وفاة والده الذي مر عام على وفاته، ونصحه البعض بألا يفعل هذا فليس في الدين إقامة السرادقات والأربعين والسنوية، وكان يرد في صوت مرتفع: ياناس ده أبويا.

واقترح البعض عليه أن يقيم السنوية في شقته توفيرا للمصاريف، لكنه صاح عاليا مرة أخرى: ده أبويا يا ناس.

وحصل على السلفة التي خصمت من راتبه لأكثر من عام.

وأذكر عندما مات عمي، وقد وضعوه في حجرة مغلقة إلى أن يحين موعد خروجه من البيت، أن جاءت امرأتان توقف حملهما، فاستأذنتا من زوجته التي وافقت على مضض، وسمحت لهما بدخول الحجرة، فدخلتا معا وهما ترتعشان من الخوف، فهما وحدهما مع الميت، وسارت كل منهما إلى الخلف؛ على يديها وقدميها في اتجاه الجثة، وكلما اقتربتا منها زاد خوفهما،حتى لمستا بجسديهما جثة الميت فصرختا. وهكذا حُلت مشكلتهما، فالخضة أزالت العائق الذي يمنعهما من الخلفة.

ويأتي المُعزُّون، يصافحون كبار أهل الميت - الذين يقفون إذا ما رأوا معزيا آتيا، ويظلون هكذا لوقت متأخر من الليل، مما يؤدي إلى التعب من كثرة الوقوف والجلوس وخاصة أن معظمهم من كبار السن.

ويجيء الساقي مرتديا بذلة سوداء وببيونة سوداء، حاملا صينية فوقها فناجين من القهوة السادة؛ يمر بها أمام المعزين (ويحدث دائما ألا يغير ما بداخل الفناجين طوال فترة العزاء) فلا تمتد يد إلى الصينية، والغريب أن الساقي يعلم مقدمًا أن لا يد ستمتد ناحيته ومع هذا يمر ويلح، هذه هي التقاليد.

ولو حدث ومد (مُعزِّي) يده وأمسك فنجانا، ربما لأنه غريب ولا يعرف عادات وتقاليد المنطقة، أو متمرد على هذه التمثيلية السخيفة، لو حدث هذا؛ سينظر إليه المعزون في دهشة واستنكار، وسيظلون يتحدثون عما فعله لأيام وشهور عديدة، وربما صارت سُبَّة له ولأهله لسنوات طويلة، فذلك دليل سفه ورعونة. ولو كان المتوفى شابا، فهذا معناه أن ذلك الذي تجاسر وشرب فنجان القهوة؛ أتى إلى السرادق خصيصا ليشمت في أهل الميت.

وعندما ماتت أمي عام ١٩٥٦ أقامت جدتي السرادق أمام باب بيتها لمدة ثلاثة أيام، كانت مقيمة داخله، تأتيها النسوة في النهار، ثم تنتقل إلى دخلة البيت،لكي يتلقى الرجال العزاء. وامتنع البيت كله عن إشعال البوابير، كل طعامنا نشتريه من السوق، وعندما اشتقنا إلى أكل الطبيخ ذهبت مع خالي الذي كان يكبرني بعام

لنشتري الملوخية والبطاطس المطبوخة باللحم من شارع "شجرة الدر" الممتلئ بدكاكين الطباخين، وكان الطبيخ ساخنا جدا، انقلب على ذراع خالي، وظل يؤلمه لأيام عديدة.

ويحدث أن يمتنع أهل البيت عن أكل اللحم لمدة طويلة منتظرين من أهل الميت أن يبدءوا بهذا، لكي يتبعوهم. الطريف في الأمر أن أهل الميت كانوا يفعلون مثل الآخرين، فيأتون بالسدق والكبدة.. إلخ يطهونها مساء، ويأكلونها سرا، وإذا دق الباب يخفونها تحت السرير لكي لا يراها الزائر.

وبعد انتهاء العزاء؛ يرفع عمال الفراشة ما أقاموه، ويحملون ذلك الصرح، ويتركون قطعة من قماش السرادقات؛ عادة ما تكون قديمة، وذلك لتكون "دروة" للنسوة اللاتي سيأتين في الصباح للعزاء (يقام عزاء السيدات في الإسكندرية داخل البيوت، ولكن في الأحياء الشعبية لا تكفي البيوت ـ عادة ـ لاستقبال العدد الكبير من المعزيات، فيقيمونه في الشارع داخل سرادق صغير).

ويسمى اليوم الأول بالصبحة، تأتي فيه النسوة صباحا، تحمل بعضهن طعاما لأهل المتوفى يتكون عادة من الخبز والزيتون والجبن والبيض المسلوق؛ لذلك كان أحد أقاربي إذا ما وجد الطعام في البيت؛ بيضًا مسلوقًا، يقول معترضًا وساخرًا:

ـ هو فيه حد مات؟!.

واليوم الثاني راحة، لا يقام فيه عزاء. أما اليوم الثالث فيسمى (الفرق) فتأتي فيه النسوة كما في يوم الصبحة، ويحدث هذا أيضا في أيام الخميس الثلاثة التالية للوفاة، حيث يصنع أهل المتوفى (القُرَص) المصنوعة من الدقيق والزيت، وقد كنا ننتظر مساء يوم الأربعاء؛ مجيء النسوة حاملات السلال المغطاة بالفوط، لكي تذهب بها جدتي صباح الخميس لتوزيعها على من معها من نساء وعلى المقرئين والمتسولين في مدافن العمود، والسلال بها فاكهة الموسم، كل امرأة بمستواها. وقد كنا نهتم بسلة تأتي بها امرأة تسكن البيت المواجه لبيت جدتي، زوجها تاجر ورق دشت، كان في ذلك الوقت أغنى رجل في المنطقة، وزوجته مشهورة بالإسراف والمباهاة، لدرجة أنها كانت ترمي لحم الفراخ في الزبالة، لكي يحكي الزبال ـ وهو من المنطقة ـ عن ذلك. كان في سلتها تفاح أميركاني، تشتريه من محطة الرمل، وفواكه غالية، لم تكن جدتي تأخذ مما في هذه السلة إلى المدافن، كانت تبقيه وتوزعه على من في البيت. وكنا نتمنى أن تمتد الخمسان لأكثر من ذلك حتى نستمتع بما تأتي به هذه المرأة، وإذا حضرت امرأة الخميس الأول فلابد أن تكمل الخمسان الثلاثة، لأنها لو امتنعت عن الذهاب في واحد من الاثنين الباقيين، فذلك فأل سيئ لأهل الميت، فقد يموت لهم فقيد آخر في وقت وجيز.

وفي الأربعين يقام سرادق مماثل للذي أقيم يوم الجنازة، وتوزع لقمة القاضي (الزلابية) على السيدات اللاتي يحضرن العزاء في البيت، بشرط ألا يكون المتوفى شابا.

ويمتنع الرجال عن الاقتراب من نسائهم حزنا على الفقيد، وقد ماتت والدة زوجة زميل لنا، وزارتهم زميلتنا في العمل للعزاء، فقابلتها زوجة زميلي مع أخواتها السيدات وكن حزانى على فقد أمهن الغالية، لكن زميلتنا قالت لهن: "فكوا الحزن".

فلم يفهمن قصدها، فشرحت لهن مقصدها، وحكت عن أختها التي مات والد زوجها، فجمعت زوجته نساء أولادها الأربعة، وقالت لهن: "كل واحدة تدخل حجرة نومها مع زوجها لكي تفك الحزن".

لكن زوجة زميلي وأخواتها غضبن منها، واعتبرنها تتدخل في شئونهن، ولا تراعي مدى حزنهن على أمهن.

٦ - بعض المعتقدات الأخرى

يعمل أهالي الإسكندرية، خاصة النساء والذين يسكنون قريبا من البحر في بحري وأبي قير؛ على أخذ قطعة من شبكة صيادي السمك ليتباركوا بها، يضعونها في محافظهم، أو جيوبهم، اعتقادا بأنها تزيد رزقهم.

- عند أذان المغرب تهرع النسوة في الأحياء الشعبية لإضاءة مصابيح الحجرات؛ حتى لو كانت خالية، وذلك لتضيء للملائكة.

- قبل أن ترمي النسوة الماء الساخن في دورات المياه، يبسملن ويستعذن من الشيطان الرجيم حتى تنصرف الشياطين فلا يؤذيها الماء الساخن، فتعاقبهن الشياطين بعد ذلك.

● إذا اقترضت امرأة من أخرى "غربال" أو إناء يستخدم للأكل؛ فلا بد أن تعيده إليها وداخله قطعة خبز حتى لا تزول البركة من البيت.

● إذا "خربشت" القطة في الخصير، فلا بد أن ضيفًا آتيا في الطريق.

● إن في يوم الجمعة ساعة نحس، وهي وقت الصلاة، فتخشى المرأة فيها على أطفالها من أن يسيروا في الطرقات حتى لا تدهمهم السيارات، ولا ينظرون من النوافذ والشرفات حتى لا يقعوا في الشارع.

● إن قص الأظافر مساء يولد الشر.

● مسح البلاط بعد خروج المسافر من البيت فأل سيئ، فالبلاط يمسح عادة بعد خروج الميت من البيت.

● يمسح بلاط الشقق الجديدة والمحلات الكاسدة بماء البحر.

● تُغسل قدما الفتاة العانس بماء (الرِّجْلة) حتى يفك عكسها؛ فتتزوج.

حكايات عن الحمير

عالم الأحلام

كان رجب مولعًا بعالم الحمير والجياد، وكل أمله أن يتمكن عندما يكبر من أن يشتري حصانًا كبيرا ليجر عربة "بنز" يتفسح بها على كورنيش البحر. وكان يتحدث كثيرا عن والده مسعود الذي لديه قسم زبالة في حي سبورتنج، وعن حماره الأبيض القوي. عندما اشتراه والده كان يعض كل من يقترب منه، ويجن عندما يرى أمامه حمارًا آخر، فيشد لجامه، ويهجم عليه يعضه ويرفسه في عنف، حتى خافته حمير الحارة وابتعدت عنه؛ وعلى الرغم من هذا كان فيه عيبان كبيران، هما: خوفه من رؤية رءوس البقر والجواميس المعلقة لدى الجزارين، ما إن يَرَها حتى ينهق ويرتعد، ويُسرع بعيدًا عنها، وخوفه أيضًا من المياه، فإذا اقترب من شارع فيه مياه يجفل، ثم يرتد إلى الخلف ويحرن ويمتنع عن التقدم إلى الأمام خطوة واحدة، فينزل عامل مسعود ويضربه دون فائدة. على الرغم من هذا كان رجب يثني عليه كثيرًا ويصفه بالشجاعة والقوة،

وينتقص من قيمة حمار زوج عمته الذي يسكن معهم في نفس البيت، كان أسود وأكثر طولا وعرضا من الحمار الآخر، لكنه هادئ ولا يجري أبدا على الشر. إذا ما قابله حمار مسعود بنهيقه وثورته؛ يبتعد في هدوء وكأن شيئا لم يحدث. كان رجب يقول عنه: إنه نَيّ وجبان.

يذهب سعد مع جده عبد العال (زوج عمة رجب) إلى قسم الزبالة الذي يمتلكه في حي محرم بك، والذي يبدأ من خلف شارع عرفان من ناحية شارع الإسكندراني، وينتهي بعد المحكمة، سكان هذه المنطقة من الطبقة المتوسطة التي لا تدفع أجرة كبيرة، بعكس سكان قسم زبالة مسعود الذين يدفعون أكثر، خاصة الخواجات الذين كانوا موجودين وقتذاك. ما زال سعد يذكر هذه الأيام، الصباح المبكر، وجده عبد العال بقامته القصيرة، ووجهه الجميل المائل للاحمرار، وطاقيته التي كانت قبعة وجدها في الزبالة؛ ففردها وغطى بها رأسه، وبنطلونه الطويل دائما، الذي يثنيه ثنيات كبيرة واضحة، وجلوسه على عريش العربة الفارغة، ويصعد ابنه جابر وسعد ابن ابنته إلى صندوق العربة المرتفع يتمازحان، أو يتشاجران داخل العربة. يقود عبد العال العربة، ويتوقف أحيانا أمام بائعة كسكسي، فلاحة بيضاء تقف في تقاطع شارعَيْ محمد العباسي المهدي والأمير أحمد رفعت، تصحو مبكرة لتلحق الزبالين قبل الذهاب إلى أعمالهم، ودكان عم يس المواجه للمحكمة. الرجل يحب عبدالعال، يمازحه طوال الوقت، ويقدم إليهم الإفطار؛ شاي بلبن وعيش فينو من فرن في شارع الإسكندراني القريب جدا، أو شُرْبة العدس والفول والطعمية، ويبدأ العمل.

جابر، خال سعد، الذي يكبره بعام واحد يعرف أصول المهنة أكثر منه، لا بد أن تحمل القفة الكبيرة فوق ظهرك وتصعد بها فارغة إلى الدور الأخير، ثم تبدأ في حمل الزبالة وتهبط بها.

ضغط سعد على جرس الباب، ففتحت امرأة شابة سمراء، نظرت إلى ذلك الطفل الصغير الممتلئ في دهشة، قال في خجل: الزبالة.

فضحكت المرأة بصوت مرتفع ونادت أختها الكبيرة التي في الداخل قائلة:

- شوفي عبد العال جايب لنا إيه.

وجاءت الأخرى مسرعة، وقفتا على الباب تضحكان لرؤية ذلك الزبال الصغير.

كان حمار عبد العال الأسود الطيب يجر العربة المُحملة بالزبالة الثقيلة، ويقف في مكان كل يوم دون مساعدة من أحد، فهو يعرف الأماكن التي سبق أن حددها عبد العال للوقوف: أمام خرابة، ثم قريبا من بيت أم بعجر المواجه لمدرسة صلاح الدين، بعيدا عن النوافذ والشرفات. يقف الحمار أمام هذه الأماكن، فيضع عبدالعال له طعامه، وعندما يرفع الطعام عنه، يعرف الحمار المطلوب منه، فيسير دون قول، ويقف دون قول، بجوار بيت امرأة مجنونة تقف في الشرفة وتحدث نفسها وتصيح. بعد أن يحملوا زبالة القسم كله، يركب سعد فوق العربة، ويجلس عبد العال على العريش، وأحيانا

يجلس جابر - ابنه - بجواره، ويذهبون إلى المقلب على ترعة المحمودية ليلقوا الزبالة هناك. ويبدأ الفرز، الورق يوضع في أجولة من الخيش. والأقمشة المهترئة توضع في قفة كبيرة، والزجاجات والعلب الفارغة توضع في قُفَف كبيرة.. إلخ. بعد ذلك يحملون هذه الأشياء ويذهبون بها إلى تاجر الورق، وتظل الزبالة المتبقية في مكانها، فهناك يربون الخنازير التي ترتع وتأكل من هذه الزبالة، والمتبقي يبيعه عمال المقلب إلى الفلاحين ليتخذوه سماداً لأراضيهم.

عندما يشم سعد رائحة الزبالة المتجمعة في مكان لمدة طويلة يتذكر هذه الأيام.

لم يتحقق لرجب ما أراد، فبعد حصوله على شهادة الثانوية العامة، كانت البلاد في عز النكسة، نتيجة لهزيمة مريرة من إسرائيل، والدولة في حاجة إلي طيارين كثيرين، فقبلوه في كلية الطيران، وارتدى بذلة طلبة الكلية الجوية وسط دهشة أهالي غربال الذين أحسوا بأن عالمًا جديدًا ينتظر المنطقة، لكن لسوء الحظ فُصل من الكلية لأنه لم يحس بالأرض عند هبوطه بالطائرة، وأشاعت بعض النسوة هناك أنهم فصلوه بعد اكتشاف مهنة والده، فكيف يكون طيارا ووالده يعمل زبالا؟.

عربات الزبالة وحرب ٥٦

تقف عربات الزبالة في غربال أمام معظم البيوت، ترفع عريشيها لأعلى، كل عريش يحيط به طوق من الحديد، فيبدو وهو

معلق هكذا وكأنه فوهة مدفع. لذا، خاف الناس أيام حرب ٥٦ وقالوا:

- أنزلوا سيقان هذه العربات لأسفل خشية أن تظنها طائرات العدو مدافع، فيدكوا المنطقة بالقنابل.

وبالفعل نزلت "أعرشة" العربات إلى الأرض، ولم ترفع إلا بعد أن انتهت الحرب. وتكرر هذا في حرب ٦٧ أيضا.

عند المغرب يأخذ عبد العال حماره الأسود الطيب مثله إلى أعلى الجبل، حيث التراب بكثرة ليتمرغ هناك ويرفس بسيقانه الأربع وينهق براحته، هكذا يتمطع الحمار ويسترد قوته التي أُنهكت طوال ساعات العمل الطويلة. وهكذا يفعل كل أصحاب الحمير في المنطقة.(لكن البلدية صنعت سلالم بازلتية، ووضعت ثلاث حدايد في أعلى الجبل حتى لا تقع السيارات من أعلى، فحرمت الحمير من التمرغ والراحة) بعدها يجر عبد العال الحمار إلى إسطبل "نزهة" وهو مصنوع من الصفيح ومضاء بلمبات جاز خابية الضوء في الأركان. وتستيقظ الحارة في الصباح على صياح، نظنه أول الأمر مشاجرة من المشاجرات الكثيرة التي تحدث، ونكتشف بعد ذلك أن أحد الحمير هرب من إسطبل نزهة.

هكذا الحمير، يخطر ببالها أن تهرب وترتاح ليوم أو يومين، فيشد الحمار الحبل المربوط فيه، ويهرب من باب الإسطبل المفتوح دائما ويجري بعيدا، وعندما يحس أنه ابتعد عن منطقة الخطر؛ يسير على مهله. ويجول بين الحدائق، ويأكل كما يشاء. يبحثون

عنه، ويحس صاحبه بالأسى فكيف سيذهب اليوم إلى عمله، يبحث عن حمار آخر يشده مكان حماره الهارب، وفي معظم الأحيان لا يذهب إلى عمله في ذلك اليوم الذي يقضيه في البحث عن حماره. وفي كثير من الأحيان يعود الحمار وحده، يسير في العودة على مهله، يدلدل أذنيه، وينظر إلى الأرض كسيفًا، ويدخل الإسطبل دون قول، ويقف في مكانه كما كان.

آخرون يمتلكون الحمير في غربال

ليس الزبالون وحدهم الذين يمتلكون الحمير في غربال، فهناك طبقة جديدة ظهرت فعندما لا يجد الشاب عملاً؛ يشتري حمارًا وعربة كارو ويعمل عربجيًا، ينقل الأمتعة، أو يذهب إلى وكالة الخضار والفاكهة في الحضرة، ويتعامل مع تجار سوق الخضار والفاكهة. بعض هؤلاء كان يذهب بحماره إلى محطة مصر ليؤجره للأطفال في الأعياد، يضع فرشًا فوق ظهره، ويمسك عصًا رفيعة، ويركب الأطفال، ويطوف بهم حول حدائق محطة مصر نظير قروش قليلة. لكن الزبالين لم يفعلوا هذا، فحميرهم لا تعمل إلا في نقل الزبالة. وكان معنا صديق والده يعمل ملاحظ كناسين، كان مجنونًا بالحمير، فيعرض على أصحابهم أن يأخذهم ويذهب بهم إلى أعلى الجبل ليتمرغوا ويرتاحوا، أو يوصلهم لإسطبل "نزهة" وكانت تخطر له أفكار غريبة، فمرة يضع قرن فلفل حار جدا في مؤخرة حمار وهو يجر العربة، فيأخذ الحمار في القفز بالعربة حتى يكاد يحطمها، ويجري في الحارة ويصطدم بالأشياء. ومرة ضرب أحد

أصحاب الحمير هذا الولد لأنه يركب حماره دون إذنه، كانت صفعة الرجل قوية، فأقسم أن ينتقم منه، وفي اليوم التالي دق مسمارا في ظهر الحمار، حتى سوس عظمه، وباعه الرجل بأبخس الأثمان. وهو يدعو على ذلك المؤذي الذي أذاه.

الزبالون يخافون من العُرضي

يخاف الزبالون من أشياء كثيرة في عملهم، أول هذه الأشياء هو الطوربيل، فقد كانت البلدية تطاردهم بسيارة نقل كبيرة، فيرمون أجولتهم وقففهم بعد أن تمتلئ بالأشياء التي يجدونها في الزبالة، إلى طوربيلهم الكبير، والشيء الثاني هو اتهامهم بسرقة أي شيء يضيع في منطقتهم، ما أسهل كلمة (اقبضوا على الزبال)!. وهناك حكايات كثيرة حدثت في المنطقة اتهم فيها الكثير من الزبالين بالسرقة، وبعد أن ضُربوا وعذبوا عادوا إلى بيوتهم، ولم يحدث أن أُدين زبال واحد بالسرقة. فهم لا يمكن أن يسرقوا، كيف يسرقون في أماكن (أكل عيشهم)؟، والشيء الثالث الذي يخافه الزبالون هو العُرضي الذي كان في حي محرم بك، قريبًا جدًا من قسم زبالة عبد العال. (مكانه الآن مساكن شعبية) يسير عسكري شرطة، ومعه سايس يحمل لجامًا في يده، ويوقفون العربات التي تجرها الحمير أو الجياد، يفتشون فيها، يرفعون أسرجتها عن ظهورها، فإذا وجدوها مريضة أو مجروحة في أي مكان من جسدها، يخلعونها عن العربة، ويضع السايس لجامه في رقبة الحمار أو الجواد ويأخذه إلى العُرضي. حينذاك يجر الزبال ومن معه العربة الثقيلة

إلى البيت، أو مكان رمي الزبالة ويقضي الرجل أيامًا عصيبة حزينة، تؤثر على بيته كله، فالحمار سيبقى في العرضي يعالجونه إلى أن يُشفى، ثم يذهب لأخذه، فيقدمون إليه فاتورة العلاج التي عادة ما تكون ثقيلة لا يقدر عليها، لكنه يفرح بذلك فحماره العزيز سيعود إليه. وقد حدث أن أخذ مسعود سعدا إلى العرضي، وتسلم حماره الأبيض القوي الشرس، وقال لسعد:

- اصعد فوق ظهره وعد به إلى إسطبل "نزهة" لأني ذاهب إلى مشوار.

لكن سعدا خاف أن يركبه، وشده من الحبل المعقود في رقبته حتى الإسطبل. (الذي منع سعد من ركوبه ما حدث له عندما ذهب مع الأسرة بعد حرب ٥٦ إلى الصعيد، فقد ركب حمارًا فأخذ الحمار يقفز قفزات عالية حتى يزحزحه عن ظهره إلى أن ألقي به على الأرض).

مَرْعِي يعود إلى غريال

عندما يأخذ العرضي حمارا يبحث صاحبه عن مَرْعِي، فهو الحل الوحيد في مثل هذه الحالات. ومرعى هذا شاب قوي جدا، وجهه مستدير وجميل، شعره أصفر وعيناه واسعتان عسليتان، وشاربه أصفر، يرتدي ملابس قديمة، وطاقية من الصوف بأذنين يغطي بها أذنيه صيفا وشتاء. يذهب صاحب الحمار للبحث عن مرعي على المحمودية، حيث يعيش مع امرأة هناك دون زواج، هي بدينة وأكبر منه، وتسكن كوخًا مقامًا على حافة الترعة دون

ترخيص أو إذن من البلدية (تأتى الحكومة من وقت لآخر وتهدم تلك الأكواخ الكثيرة المقامة، لكن بعد أيام قلائل يعودون لبنائها ثانية). الزبالون لا يلجئُون إلى مرعي إلا للشديد القوي، والشديد القوي هو العُرضى الذي أخذ حميرهم. فمرعي عبء على من يعمل عنده. هو وحده الذي يستطيع جر عربة زبالة ثقيلة خاصة في الصيف حيث يكثر قشر البطيخ الثقيل. مرعي يأكل كثيرًا طوال وقت العمل، وجسده قوي وكبير، كما أنه يتعب الزبال الذي يعمل عنده، فلابد له من ميزانية خاصة. وبعد أن يعود بالعربة يجلس أمام باب شقة صاحب العمل، يعطيه الرجل أجرته وأكثر منها، ويقول له:

ـ تعالَ في الغد بعد الفجر بقليل.

ليفهم مرعي أن المهمة انتهت وعليه أن يعود إلى جسد المرأة وكوخها على المحمودية. لكنه لا يتحرك من مكانه، يظل مبتسمًا في بلاهة كعادته، ويجلس في مواجهة باب الشقة المفتوح، فيقدمون إليه الطعام، يأكله في الخارج، وبعد أن ينتهي من أكله يظل في مكانه، فيقدمون إليه الشاي. الزبالون الذين تضطرهم ظروفهم للاستعانة بمرعي يخافون على زوجاتهم منه فهو وسيم جدا وقوي جدا، والمرأة لا تريد أكثر من ذلك. لهذا تكون أيام صاحب الحمار المعدودة ـ حتى يعود حماره من العرضي ـ أيامًا صعبة ويكون في غاية التعب والقلق والعذاب.

ذكاء الحمير

قرأتُ وأنا صغير حكايات صبري موسى، قرأتُها متفرقة في مجلة صباح الخير، وما زلت أذكر أول حكاية فيها، عن رتل عربات كارو تنقل الخضار والفاكهة الآتية من القليوبية في الليل. حمار يجر عربة وخلفه باقي العربات. الذين يقودون هذه العربات ينامون فوقها. والحمير اعتادت على السكة وتسير فيها دون معاونة من أحد. تصل هذه العربات إلى سوق الخضار والفاكهة في الصباح المبكر، لكن رجلاً سكران، طلعت في رأسه فكرة، فأمسك أول حمار وشده إلى عرض الشارع لكي يعود ثانية إلى الطريق الذي جاء منه. فعادت العربات إلى القليوبية. وعندما استيقظ الرجال الذين كانوا ينامون فوق العربات، وجدوا أنفسهم في قريتهم في القليوبية، وهكذا كان يفعل حمار عبد العال، يسير دون معاونة من أحد ويقف في الأماكن التي سبق أن حددها له. وحدث أن قبضت الشرطة في الصعيد على حمار محمل بالأسلحة وهو يسير وحده، فأخذوا الأسلحة عنه وتركوه، فعاد إلى بيته، فعرفوا الذين وضعوا الأسلحة فوق ظهره وقبضوا عليهم. وحكى لي رجل كان يمتلك حماراً ينقل به بضاعته، ثم استغنى عنه بسيارات النقل، فوضعه في إسطبل وأوصى عماله به خيرا، لكنهم أهملوه وتركوه دون أكل، فذهب لزيارته، فإذ بالحمار يبكي في أسى ويتمسح فيه، فصاح في عماله غاضبا:

- مزعلين الحمار ليه؟!

ثم ربّت على رأسه وقدم إليه الطعام مواسيًا، ووعده بأن هذا لن يتكرر. وحكى لي آخر، يمتلك عربة كبيرة يجرها حمار، أنه قرر أن يبيعه ليفك أزمته المالية، فإذا به، ولا يدري ما الذي أخبره بما نوى أن يفعله صاحبه، قد اقترب منه، وأخذ يمسح برأسه في ظهره وكتفه، فقام الرجل وضمه لصدره قائلا:

- لن أبيعك مهما حدث.

ورأيتُ في "سوق الجمعة"، حيث يقف الباعة في يومي الخميس والجمعة لبيع الأشياء القديمة، فتزدحم الشوارع بالباعة وبالأشياء وبالمشترين، وتقف عربات تجرها الحمير والجياد في طريق ترام (٦) التي تبدأ من قصر رأس التين وتنتهي في محرم بك. تأتي الترام، فيضغط سائقها على الجرس، فيبتعد الحمار بعربته ليفسح مكانًا لسير الترام وبعد أن تمر يعود وحده ليقف في مكانه. كل هذا وصاحبه يتابعه وهو جالس مع باعة الأشياء القديمة يحدثهم ويسامرهم.

وحدث أن ضحى حمار بنفسه لينقذ الناس، فقد تجمعت المياه أسفل كوبري سموحة، وهي عادة ما تتجمع هكذا أيام المطر الغزير لدرجة أن ساكني هذه المنطقة يتعذر عليهم الخروج من بيوتهم والذهاب إلى أعمالهم، وكان يقف بعض الرجال يلبسون في أرجلهم أحذية طويلة، ويحملون الرجال والنساء والأطفال، ويعبرون بهم هذه المنطقة نظير أجر قليل. حدث في هذه المنطقة أن غطت المياه الأسلاك الكهربائية العارية، فأدى هذا إلى كهربة الأرض، ومرت

عربة كارو في هذه المنطقة، فصعقت الكهرباء الحمار ومات في الحال فعرف الناس أن هذه الأرض مكهربة، فتعاملوا معها على هذا الأساس، ولولا الحمار لمات الكثير وهم يعبرون.

الغريب، رغم كل هذا، أن يرتبط الحمار بالغباء، ويقول يحيي حقي في كتابه الجميل "وجدت راحتي مع الحمير":

"الحمار عينيه ذليلة وحزينة وتكاد تترقرق فيها الدموع، ليس في صوت حيوان آخر مثل هذه الحرقة والتفجع والمرارة. إنها صرخة عذاب واستغاثة وإشهاد الناس في نوبة متفجرة من بكاء بلا دموع تمزق الهواء، ثم تذوب كأنها لم تكن".

وقد نعى الشاعر أبو الحسين الجزار حماره الذي نفق فقال:

ما كل حين تنجح الأسفار نفق الحمار وبارت الأشعار
خُرْجي على كتفي وهأنا دائر بين البيوت كأنني عطار
لم أنسَ حدة نفسه وكأنه من أن تسابقه الرياح يغار
ويلين في وقت المضيق فيلتوي فكأنما بيديك منه سوار
ويسير في وقت الزحام برأسه حتى يحيد أمامك الحضار
لم أدر عيبًا فيه إلا أنه مع ذا الذكاء يُقال عنه حمار!

كيف عانت مصر من أزمة الحمير

قال محدثي مندهشًا:

- ألم تلاحظ أن عدد الحمير قل هذه الأيام؟.

قلت: ربما لأن سيارات النقل زاد عددها، فقل الاعتماد على الحمير.

قال لي: ذهبت إلى سوق الحمير، فلم أجد حمارا واحدا يصلح للعمل.

(يعقد كل يوم أحد سوقا للحمير في حي المنشية، بجوار مستشفى بروك الخيري لعلاج الحيوانات - وبجوار المستشفى بيطار. يقوم بتغيير حدوة الحمار، وبيع لوازمه).

واكتشفت بعد ذلك سر اختفاء الحمير.

فقد جمع الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات كل الحمير الموجودة في بلده وأرسلها إلى مصر - هدية - لكن بعض التجار الكبار علم أن المجاهدين الأفغان الذين يحاربون الروس في حاجة إلى البغال والحمير لكي تتسلق الجبال الوعرة حاملة السلاح والطعام والعتاد، فاشتروا كل ما يجدونه منها، وباعوه لسماسرة الحروب. وبهذا قل عدد الحمير في مصر.

الأسماء التي تجلب الحظ لأصحابها

سأل هارون الرشيد أخاه إبراهيم بن المهدى: "ما أحسن الأسماء عندك؟".

قال: "محمد، اسم رسول الله واسمك هارون، اسم أمير المؤمنين".

فسأل هارون الرشيد: "فأقبح الأسماء ماهو؟".

قال" "إبراهيم".

فزجره هارون الرشيد قائلاً: "ويحك! أتقول هذا! أليس هو اسم إبراهيم خليل الرحمن؟".

قال: "بشؤم هذا الاسم لقى من نمرود ما لقى، وطرح فى النار".

قال الرشيد: "فإبراهيم، ابن النبي (صلى الله عليه وسلم)؟".

قال إبراهيم بن المهدى: "لا جرم! إنه لم يُعمرً من أجله".

قال الرشيد: "فإبراهيم الإمام؟".

فقـال: "بشـؤم اسـمه قتـله مـروان فى حـرّان، وازيـدك يـا أمـير المؤمنـين: إبراهيم بن الوليد، خلـع، وإبراهيـم بن عبدالله بن حسـن، قتل، وعمه إبـراهيم بن حسن، سقط عـليه السجن فمات؛ وما رأيت والله أحدا بهذا الاسم إلا قتل أو نكب، أو رأيته مضروبًا أو مقذوفا أو مظلوما".

قرأت هذه الكلمات منذ سنوات طويلة وكان مديرنا العام في الشـركة التى أعمل بهـا اسـمه إبـراهيم، وكـان يحب المزاح معى، فحكيت له عما قرأت، فوافقنى على قولى وحكى لى أشياء حدثت فى حياته تؤكد قول إبراهيم بن المهدى، وشاعت هذه الحكاية بين زملائى فى الإدارة، فكانوا يأتون إلىَّ ليحكوا لى عما حدث لرجال يحملون اسم إبراهيم، فنجيب الريحاني فى فيلم "أحمر شفايف" كان اسـمه "إبـراهيم" وبشـؤم اسـمه طـرد من وظيفته، وتـرك بيت الزوجية، ودار فـى الشوارع يقتات من محلات الفكهانية دون أن يدفع، وعبد الحليم حافظ فى فيلم "معبودة الجماهير" كان اسمه إبراهيم، وبسبب اسمه حرم من حبيبته، وعذب وأهين، واستعرضنا كل الذين يحملون اسم إبراهيم فى الشـركة، فوجدنا فيهم ما يؤكد قول إبراهيم بن المهدى.

فصديقى فى الشركة اسمه إبراهيم، يقول عن نفسه: إنه خير مثال لمقولة إبراهيم بن المهدى، فقد كان شقيقه الأكبر صديقا لخال جمال عبد الناصر، فطلب منه أن يتوسط لعمل شقيقه إبراهيم فى بنك كبير من بنوك الإسكندرية، فرحب الرجل وطلب منه مسوغات

التعيين، لكن الرجل مات والأوراق فى سترته، وتم تعيينه فى شركتنا مع زميلة له فى يوم واحد، لكن موظف التوظف، احتسب تعيينه في يوم السبت، واحتسب تعيين زميلته فى يوم الخميس، لكى تحصل على مبلغ أكبر منه، فالبونس مكافأة تدفع للعاملين فى الشركة كل ثلاثة شهور؛ فتم إضافتها إلى المرتب الشهرى، فقد كان يوم الخميس آخر يوم لاحتساب "البونس" ومن يتعين فى الشركة بعد ذلك لا يحصل عليه، وظل مرتبها أكبر منه بكثير.

ويقول لى: إنه وقف فى طابور الخبز لأكثر من ساعتين، وعندما وصل للبائع، قال له: ـ العيش خلص.

وعندما تزوج فتاة جميلة جدا، اكتشف بعد ثلاثة شهور من الزواج؛ أنها مجنونة ولا تصلح للزواج.

وقد كانت الشركة تسلمنا علب مسلى من النوع الجيد، فى المواسم الإسلامية، وفوجئ زميلى بعلبته فاضية وملحومة من الناحيتين.

وقد تم القبض عليه في ليلة يوم خميس من قبل مباحث أمن الدولة، وظل محبوسًا عندهم لمدة أسبوع، لأن جهاز الكمبيوتر سجل رقم تليفون بيته، بدلا من أن يسجل نمرة تليفون أم إرهابى مصري مهم يعيش في بريطانيا مع أن صديقى هذا ليست له أى صلة بهذه الأنشطة، وماشى جنب الحيط ـ كما يقولون ـ ولو تركت نفسى لذكر نوادر صديقى فى سوء الحظ لن أنتهى.

بالطبع هذه الحكايات ليس لها قانون علمى يؤكدها، فمن الممكن أن نجد إبراهيم سعيدا فى حياته، وآخر شقى. ومن الممكن أن نجد عليا طيبا وآخر اسمه على وهو نصاب وسارق. لكن هذه الحكاية جعلتنى أتمعن فى الأسماء وخصصت ملفا فى الكمبيوتر لذكر أسماء الأشخاص العجيبة، وكلما سمعت اسما غريبا أسرعت وسجلته فى مكانه، وبحثت عن سبب هذه التسمية.

**

كنتُ معجبا فى صغري بمحمود المليجي - الممثل المشهور - وسألت نفسي من أين جاء اسم "المليجى"؟ وراعنى عندما كبرت اسم "البرادعى"، وعندما قرأت كتاب "مطلع الإيناس فى رحلة العباس" لمؤلفه عبد المسيح أنطاكى بك عن رحلة الخديو عباس حلمى الثانى لقرى ومدن مصر، وجدته قد زار بلدة برادعه المنسوب إليها كل الذين يحملون اسم البرادعى وقرية مليج المنسوب إليها محمود المليجى وهى تابعة لمحافظة المنوفية.

وعندما كنت أعمل بشركة الورق، جاء مدير بالمصنع بعدد كبير من بلدياته - أهالى مدينة أدكو - ففوجئت بأسماء غريبة أسمعها لأول مرة. فهذا المدير اسمه "..... حلقها"، وواحد من الذين جاءوا معه اسمه "..... برمو، وآخر اسمه" ..... كعبارى، وواحد اسمه" .. كوزو، "و "..... خرابة"، وأسماء أكثر غرابة لكنني نسيتها الآن.

وأرجع إلى ملف الأسماء الغريبة عندى فأجد:

الحسك:

وهو اسم لحشائش تنمو وحدها، دون أن يزرعها أحد. كنا نقول عنها تنمو شيطانيا، فقالوا إن هذا حرام؛ قولوا تنمو ربانيا، لأن ربنا هو الذي ينميها ويكبرها وليس الشيطان. المهم أننى كنت أعرف واحدا اسمه الحسك، كان صعيديا وقصيرا وضامرا ولا أعرف للآن إن كان الحسك اسمه الحقيقى أو أنه اسم شهرة، ولا أعرف لماذا سمى بهذا الاسم الغريب.

الحسك هذا كان يعمل مع عمه فى فرش فاكهة فى محطة الرمل، خلف سوق المسلة المشهور هناك، والده وعمه شريكان فى تجارة الفاكهة، وبعد أن مات والده أراد عمه أن ينفرد بملكية الفرش. إن كان عاجب الحسك هذا فليعمل بالأجرة لدى عمه مثل أى أجير، وعندما طالب الحسك عمه بحقه طرده؛ فعمل مساعدا لفكهانى بجوار سينما راديو.

الكنج:

محمود الكنج كان مخبرا فى قسم شرطة العطارين، ووصل إلى رتبة شيخ المخبرين، وكنت أراه يقود حملة تطهير فى محطة مصر، ويمسك بملابس شاب يبيع الشاى على باب المحطة الحديدى، يفتش ملابسه، ويصفعه، ثم يضربه بساقه على مؤخرته على سبيل التحقير والازدراء، ورأيته كثيرا فى جلسات الحشيش فى الأفراح التى كانت تقام فى الشوارع، وسمعته يحكى لمن معه عن بطولاته،

وأنه قبض على رجل صعيدى مع رجاله وضربوه فى عنف وأرادوا أن يرغموه على سب بلده، يقول إنه من بلد وسخة، لكنه امتنع، فضربوه أكثر، فتمسك بموقفه أكثر حتى ضاقوا به فسألوه: أنت من أنه بلد يا ولد؟ فقال: بلدة كذا، وهى نفس قرية محمود الكنج وبلدة معظم سكان المنطقة التى يعيش فيها.

لكن - للأسف - تورط محمود الكنج فى مشكلة أدت إلى وقفه عن العمل ثم فصله نهائيا من الخدمة، فاضطر أن يؤجر الكرنكات للأطفال فى الشارع.

سنغافورة:

هو أصلا اسم دولة معروفة، لكن أحد صانعى الأحذية كان يسمى بهذا الاسم، ولا أعرف لماذا، دكانه كان فى ممر ضيق يقسم عمارة كبيرة بشارع صفية زغلول نصفين، الممر به دكاكين متراصة علي الصفين فيه الخياط، والكهربائى، والمنجد، والمكوجى.. إلخ. والظاهر أن سنغافورة كان حاذقا فى صناعة الأحذية، فقد كانت السيدات الغنيات يأتين إليه، تقف سيارة الواحدة منهن فى الشارع العمومى، وتدخل الممر، فيلحظها أحمد سنغافورة من بعيد، فيُسرع فى دخول أى دكان يقابله ويختبئ فيه. فتسأل المرأة فلا تجده، فتعود خاسرة، كان يعطى النساء مواعيد ولا يفي بها عادة، وكن يتمسكن به ويحتملن تصرفاته الغريبة.

لم يكن متزوجا، ينام أحيانا فى دكانه، يكسب كثيرا وينفق بسخاء، من الممكن أن يدعو كل سكان الممر على أكلة سمك تكلفه

الكثير جدا، ولا بد أن تكون البيرة موجودة على المائدة الكبيرة جدا، وهاجرت خوجاية من زبائنه إلى إيطاليا؛ فأرسلت من هناك تطلب ثلاثة أحذية ومقاييس قدميها عنده، فأمسك بالخطاب والشيك المرسل وهو يصيح لباقى الصنايعية فى الممر:

ـ شايفين يا غجر، بيبعتولى من إيطاليا علشان أعمل لهم جزم.

وكان مزاجه فى متابعة المباريات فى الاستاد، خاصة عندما يلعب نادى الاتحاد السكندرى، فلا تفوته مباراة واحدة له، وطوال الوقت يتحدث عن لاعبيه وإدارييه، وكان لسانه "متبرِّى منه" ـ كما يقولون ـ فلا يخاف أحدًا من الممر، ولو فعل أحد سكان الممر شيئا أمامه؛ لا بد أن يفضحه علنا وأمام الجميع.

مات سنغافورة فجأة داخل دكانه فقام أهل الممر بدفنه فى مدفن أحد أصحاب المحلات هناك، واسترد صاحب العمارة دكانه، فلم يهتدوا لأحد من وارثيه، وطوال فترة حياته لم يروا له قريبًا أو نسيبًا.

السيد شمعة:

أعرفه قبل أن يكتسب اسم شمعة هذا، كان يعمل مساعد زبال لدى أم الشحات وهى امرأة متزوجة من رجل أصغر منها بكثير، أصغر من ابنها الشحات، وكان يشرف على العمل فى قسم الزبالة الذى تمتلكه، والسيد هذا يساعده، ويطيعه فى كل شيء. كان السيد يشعل الخشب فى ماجور كبير ليتدفأ فى ليالى الشتاء الباردة، وكنا

ونحن صغار نرمى البمب فى الماجور، فتنفجر البمبة وتُحْدث دويا عاليا، وتتطاير النار فى وجهه، وربما تشعل قفطانه الذي يلبسه. كان بيت أم الشحات بلا مياه، يأتى السقا حاملا صفائح الماء، ويملأ بها الأزيرة.

فكان السيد يأتى إلى بيت جدتى القريب ليستحم فى حمام البيت ولا ينسى أن يشكو لجدتى من معاكساتى له (الكثيرون كانوا يأتون للاستحمام فى حمام بيت جدتى، فقد كانت الشقة بدون باب، والحمام بعيد عن حجراتها).

ظل السيد بلا زوجة، وفجأة قرر أن يتزوج أرملة شقيقة لمكوجى يسكن كوخا فوق سطح بيت جدتى. زوجة ذلك المكوجى ذات جسد ممشوق، ولا يعيبها إلا حَوَل واضح فى عينيها، وكانت تزيد من دخل أسرتها باستغلال جسدها الرائع، وذات ليلة جاء رجال كثيرون ومعهم نساء، فقد أقامت المرأة حفلا ربما بمناسبة عيد ميلاد ابنها، أو مناسبة أخرى لا أذكرها الآن. المهم أن الرجال والنساء لم يجدوا مكانا لممارسة الحب فى ذلك الكوخ الصغير، فكانوا يهبطون إلى شقة بلا باب، حجراتها أغلقها شقيق جدتى إلى أن يحين موعد زفافه الذى طال. وكان سيد يحمل شمعة كبيرة لينير للعشاق حتى يُجِدْن ممارسة الحب. واكتشف شقيق جدتى هذا، فضرب سيد ومن معه من رجال ونساء ـ بمعاونة أهل الحارة ـ وطردوهم من البيت. ومن يومها أطلقوا على سيد اسم "السيد شمعة".

محمد الشريف :

اسمه الحقيقى محمد عبد الباسط، وليس فى عائلتهم من يسمى الشريف، لكنه اكتسب هذا الاسم بجهده وعرقه، فقد كان يدخل البيوت مساء، ويخدر أهل البيت ـ لو كانوا موجودين ـ ويسرقهم، وكانت صورته معلقة فى محطة سكك حديد الإسكندرية بمحطة مصر، بجوار شباك قطع التذاكر فى أوضاع مختلفة، وتحذير للمتعاملين مع السكك الحديدية، على أنه من اللصوص الخطرين، كان يحكى مغامراته فى السرقة، كيف سرق حَلَّة بلحمتها، وأعطاها لأخته الكبيرة، على أن تأكل ما فيها هى وزوجها وأولادها، وتغسل الحلة ليذهب ليبيعها.

أطلق عليه أهل الحى اسم الشريف سخرية من أفعاله فى السرقة، وقد أعجبه اللقب الجديد، وكان يقف فى حفلات الزواج، وينقط على فرقة العوالم مناديا: "محمد الشريف بيمسى على الفرح"، ثم يغنى أغنية من أغنيات عبد الحليم حافظ، أو محرم فؤاد الذى ظهر فى هذه الأيام. لم يكن صوته يصلح للغناء، وكان لا يعرف طريقة اللحن، لكنه يعتقد أنه مطرب أفضل من كل المشهورين الذين يغنون فى الإذاعة. دخل محمد الشريف سجن الحضرة عدة مرات، وكان يشكو من العذاب الذى يلقاه فى سجنه، لكنه بعد فترة يحاول أن يستقيم فيها يعاود ثانية دخول البيوت وسرقتها، وتزوج بعد أن كبر على الزواج، وظل لفترة طويلة دون إنجاب، وكان هو السبب فى ذلك، فأقسم بأن يمتنع عن سرقة بيوت الناس إن مَنَّ

الله عليه بالإنجاب، واستجاب الله له بالفعل وأنجب الولد والبنت واستقام، لكن ظل اسم الشريف ملاصقا له، حتى ظن البعض أنه اسمه الحقيقى.

دعباس:

هو من اسماء الكلب وهو كُنّية لساعٍ كان يعمل فى شركتنا، وكان أحول ويرتدى ملابس صارخة الألوان ومحزقة، ويذهب إلى الكازينوهات الليلية.

الكَحُول:

الوسيط فى الصفقات المشبوهة مثل الأرض الزراعية التى ستتحول إلى أرض بناء أو العمارات التي تخالف قوانين البناء، يبيع صاحب الأرض أو العمارة له شكليا وعند وصول الخبر إلى البوليس، يتم القبض عليه، ويتحمل العناء فى قسم الشرطة والنيابة. ثم يدفع صاحب الأرض والمشترى الحقيقى الغرامة المستحقة عليه، زائد أجرته المتفق عليها.

أبو حليمة:

أمه اسمها حليمة، وهو آخر أولادها، فسمته بهذا الاسم.

على بالطو:

غلب عليه اسم بالطو لأنه كان يسافر إلى ليبيا كثيرا ويشترى صفقات معاطف، ويبيعها، ويصر على لبس معطف واسع لا يليق

عليه فى معظم الأوقات، وصار هذا لقب الأسرة كلها، هو وإخوته وأبنائه.

قهوة خبينى:

قهوة فى حى بحرى بلا أبواب. مكان الباب مغطي بقماش شادر قديم ومتهالك مفتوحة طوال الليل والنهار. يأتى إليها الذين لا يجدون المأوى يجلسون على المقاعد حتى الصباح.

حارة خبينى:

قريبة من حى جبل ناعسة، يشتهر أهلها بتجارة المخدرات.

أحمد عيش:

رجل كان يكثر من أكل الخبز الحاف فى الشارع أمام الناس.

بعليطة:

اسم رجل يبيع خمرا سيئا رخيصا فى حى كرموز.

إبراهيم كمونية:

سائق فى الشركة التى كنت أعمل بها، ممتلئ، وبكَرِش كبير، وصوته أجش، يفطر كرشة وكمونية وأشياء من هذا القَبيل، مما يؤثر عليه فى قيادة السيارات، ركبت معه ذات مرة، وكان يجلس بجواره ساعٍ مسئول عن توريد المستندات إلى البنك، لاحظت أن

الساعى يدق على صاج العربة من وقت لآخر، فقد كان كمونية ينام وهو سائق، ثم سار على البحر بالعرض، حينذاك، نزلنا من السيارة وركبنا تاكسى.

الإسكندرية والذاكرة المحفوظية

من المعروف أن كل جيل يعبر عن زمنه وعالمه. فبيرم التونسي الشاعر العظيم، الذي عبر عن هموم الشعب المصري بكل فئاته، وشارك في كل قضايا بلاده بشعره السهل الجميل، لم يستطع أن يعبر عن أزمة السويس بالقدر الذي عبر به صلاح چاهين؛ الذي أصبح ممثلا لشعر العامية في ذلك الوقت.

وابتعد إبراهيم حمودة وعبد الغني السيد وعبد العزيز محمود وغيرهم من الأصوات الجميلة عندما ظهر عبد الحليم حافظ، لأنه كان ممثلا لذلك الجيل في ميدان الغناء.

لكن اثنين، في رأيي، شذا عن ذلك، وحطما هذه النظرية هما: محمد عبد الوهاب، ونجيب محفوظ. فقد عاشا في جيلهما وأجيال أخرى عديدة بعد ذلك.

كان من المتوقع أن يبتعد نجيب محفوظ بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧ ليبدأ جيل جديد تفرزه تلك الظروف القاسية التي يمر بها الوطن. لكنه - ولأنه حالة متفردة - عبَّر عن هذه المرحلة أيضا، وشارك

كتّاب الموجة الجديدة في فترة القلق وعدم التوازن التي أعقبت هزيمة يونيه ٦٧ مباشرة. لكنه سرعان ما عاد ثانية إلى طبيعته الفنية السليمة.

ونجيب محفوظ استحق ما وصل إليه بجدارة، لأنه أخلص تماما لعمله. ففي حديث له مع إحدى المجلات، يذكر زوجته بالخير لأنها تحملت من أجله؛ وضحت بالزيارات العائلية التي تهتم بها المرأة، عادة، لأنه لا يستطيع أن يستجيب لتلك الرغبة في الزيارات وحضور المناسبات الاجتماعية، لأن وقته لا يسمح له بذلك.

ولو تتبعنا مسيرة كبار الروائيين في العالم لوجدناهم يعملون عددًا كبيرًا جدًا من الساعات في اليوم الواحد. فالرواية تستوجب عملاً شاقًا من القراءة المتواصلة والتحضير للرواية ثم كتابتها. وفي ذلك يقول يحيى حقي عن نجيب محفوظ: "مما لفت نظري شدة أمانته لعمله وإخلاصه له، فهو لا يهجم على أمر دون أن يتخذ له عدته حتى في رسم الشخصيات الثانوية. إن قدرته على البصر والإبصار خارقة. وإني لتأخذني رجفة كلما تصورت حال أدب القصة عندنا لو لم نسعد بفن نجيب محفوظ".

وحكى الأستاذ الدكتور صلاح فضل في ندوة له في الإسكندرية، من أنه سأل نجيب محفوظ يوما عن أسباب وصوله إلى هذه المكانة العظيمة والمقدرة الواضحة في كتابة الرواية، فقال نجيب: السبب هو المثابرة.

نجيب محفوظ لا يهتم بمتطلبات عادية تشغل سائر الناس. فقد تعطل تليفون بيته في الإسكندرية، حيث كان يقضي إجازته الصيفية فيها، فلم يلجأ إلى المسئولين طالبا إصلاحه، إنما تحدث عنه في جلسته. وربما جاء هذا عرضا، عندما سأله أحد الجلوس عن عدم رده عليه تليفونيا، فتطوع أديب سكندري، يشاركه الجلسة وقتذاك، بالسعي لإصلاح التليفون.

وقد حكى لي صديقي حسين عيد، الناقد المعروف، إنه كان يقف في طابور لتجديد رخصة سيارته، فإذ بنجيب محفوظ في الطابور. فقال له:

ـ معقولة! سيادتك واقف في الطابور بنفسك، كان من الممكن أن ترسل أحد معارفك.

فقال: ـ انا قلت أشوفهم بيعملوا إيه.

يوسف إدريس، في رأيي، موهبة متأججة مشتعلة، وموهبته أكبر من موهبة نجيب محفوظ، لكنه لم يُعطِ لعمله كما أعطى نجيب محفوظ لعمله من جهد وتعب. فإدريس كان نجما في سماء الأدب، يتعامل مع الآخرين على هذا الأساس؛ ولا بد أن يحاط بالعديد من النجوم السينمائية، يكون هو محط اهتمامهم بل وقاضيهم أحيانا، يشكون إليه، فيصالحهم. بينما يبتعد نجيب محفوظ عن أشياء عديدة مهمة من أجل أن تكون الرواية محط اهتمامه، يحملها معه في سيره وفي عمله ـ أيام كان يعمل ـ وفي جلساته مع أصدقائه وتلاميذه. فهو يختار الأماكن التي تفيده في عمله الروائي، ويختار

بعض الشخصيات التي تفيده عند بناء الشخصيات في كتابة رواياته.

وقد أوضحت في قصة لي نشرت في جريدة القاهرة عن اهتمام نجيب محفوظ بشخصية غريبة كانت ترتاد النوادي الأدبية في الإسكندرية، وتحرص على مشاركة نجيب محفوظ في جلساته. وأن نجيب تعامل معه كمادة قصصية. فكان يسأل عنه، وأطلق عليه اسم "المسكين الغامض".

وتقول الدكتورة فاطمة موسى في ذلك: كان نجيب محفوظ دائما من أكثر كتابنا وعيا بنفسه وبتطوره الفني. وربما ساعده على ذلك تراثه الفلسفي القديم وتمسكه، لسنوات طويلة، بلقاءات منتظمة مع أجيال من شباب الكتاب والصحفيين وهم في أكثر الأوقات يمطرونه بالسؤال تلو السؤال عن كتاباته وآرائه، ويضعون إنجازه تحت المجهر من الفحص الدائم.

ويتضح مما نشر من أحاديثه ـ في تلك الفترة ـ أنه كان يسير في تطوره الفني مفتوح العينين، يعرف مكانه وسط خضم الأحداث. كما يعرف مكانه في خريطة الأدب في العالم، ويتنبأ بالخطوة التالية في إبداعه.

سكندريات محفوظية

إنني أرى أن تطور الشكل عند نجيب محفوظ بدأ منذ أن كتب عن الإسكندرية. فأعماله الأولى، رغم جودتها، كان أسلوبها لا يخلو من ملل، وتحمل تفصيلات زائدة عن الحاجة.

نجيب محفوظ محب للإسكندرية، وفي جلساتي القليلة معه فيها سمعته يتحدث عن زياراته لها أيام كان موظفا في وزارة الأوقاف.

وقد سُئلت في برنامج تليفزيوني عن صورة السكندري في الدراما التليفزيونية، وعن المبالغة في إظهار "الكاركتر" السكندري. فقلت إن هذا راجع إلى أن بعض الكتاب يبدءون الكتابة دون أن يدرسوا البيئة التي يكتبون عنها، وقلت إن نجيب محفوظ كِتب عن الإسكندرية فلم يأتِ بهذه المبالغات الغريبة لأنه يعرف العادات والتقاليد السكندرية لزياراته الكثيرة لها ولصلاته الوثيقة بالكثيرين من أهلها.

بدأ نجيب محفوظ الكتابة عن الإسكندرية بروايته "اللص والكلاب" فاتجه بها اتجاها جديدا على مستوى الرواية العربية. فالرواية العربية حتى "اللص والكلاب" كانت تعتني بالوصف الخارجي للشخصيات والأحداث وتركز على الصراع الذي يدور بين الشخصيات والمجتمع. وتركز على ملامحه الخارجية دون أن تلقي ضوءا على ما يدور داخل الشخصية وانعكاسات الظروف الخارجية على التكوين النفسي لها.

في "اللص والكلاب" صيغة مختبئة بارعة تكاد يتفرد صاحبها بمستواها الرفيع، فتجردت الرواية من التفصيلات الثانوية. كانت "اللص والكلاب" أول رواية يكتبها نجيب محفوظ بنبض ديناميكي جعلنا نغفر له إسهابه القديم. قدم لنا البطل من الداخل والخارج

معا حتى يكاد القارئ يحس بوجود البطل الفعلي أمام عينيه. فهو هنا لا يهتم بتسجيل التجربة بل آثارها وإنارتها من الداخل، ومن زاوية فردية بحتة، هي زاوية بطل الرواية سعيد مهران.

لا يهتم نجيب محفوظ بقضية خيانة زوجته له، ولا يفسرها أو يحللها، لكنه يواجه سعيد مهران ويواجهنا بها كأمر محتوم كالقدر نفسه.

استوحى نجيب محفوظ روايته من حادث سفاح الإسكندرية محمود أمين سليمان، الذي شغل الأذهان يوما وأقام الدنيا وأقعدها قُبيل نشر الرواية. وجعلت منه تهويلات الصحافة بطلا، وصورته في صورة الإنسان الخارق القادر على كل شيء. كانوا يقولون إنه يستطيع القفز من عدة أدوار دون أن يصاب بسوء، لأنه خلع عظمتي ركبتيه في عملية جراحية، واقتفت أثره الكلاب البوليسية حتى فر إلى كهف في الجبل كما تفر الضواري أمام كلاب الصيد.

الإسكندرية مدينة السفاحين

ظهر في الإسكندرية العديد من السفاحين، منهم ريا وسكينة في عشرينيات القرن العشرين. فكتب البعض عنهما، نجيب محفوظ عندما كتب سيناريو الفيلم المأخوذ عن حياتهما والذي أخرجه الفنان صلاح أبو سيف. ثم كتب بهجت قمر مسرحيته الكوميدية "ريا وسكينة".

ثم ظهر سعد إسكندر سفاح كرموز. وكُتبت عنه بعض الأعمال وإن كانت لم تَرْقَ إلى مستوى ما كُتب عن ريا وسكينة.

وظهر محمد عبد العزيز وأحمد على حسن اللذان كانا يعملان في مشتل محطة السكة الحديدية في الإسكندرية، وكانا يصطادان السائرين أمامهما في منطقة "المناورة" التي يندر مرور الناس فيها، فيأخذان نقودهم ثم يقتلونهم. وتم القبض عليهما وأُعدما.

وظهر حسن قناوي الذي كان يعمل مع بعض الإقطاعيين، فيجندونه للقتل لحسابهم، وتم القبض عليه في جريمة النزهة الشهيرة، ولم يحكم عليه القاضي، الخازندار، بالإعدام، فقد تم إنقاذ المجني عليه، ولم تثبت إدانة قناوي في الجرائم السابقة.

وفي أواخر خمسينيات القرن العشرين، ظهر آخر السفاحين السكندريين محمود أمين سليمان الذي كتب عنه الفريد فرج ونجيب محفوظ وغيرهما.

كانت شخصية السفاح محمود أمين سليمان في الواقع تافهة لا معنى لها ولا قيمة. لمع صاحبها يوما ثم انطفأ وزال أثره في الوجود. لكن أسبابا كثيرة تجعل نسبة كثيرة من المصريين تنحاز إلى الذين يخرجون على الشرعية ويواجهون السلطة؛ حتى وإن كانوا على غير الحق.

فالعديد من الأبطال الشعبيين أمثال: أدهم الشرقاوي وياسين، حبيب بهية، وغيرهما، مجرد خارجين على القانون أو قطاع طرق.

لكن الظلم المتراكم من السلطة جعل العديد من المصريين ينحازون إلى هؤلاء ويعجبون بهم.

وأذكر بعد مقتل محمود أمين سليمان وكنت قريبا من سكنه، قرأت على جدران "العُرضي" الذي تحول إلى مساكن شعبية في حي محرم بك، قرأت عبارة "السفاح عاش بطلا، ومات بطلا".

وترى الدكتورة فاطمة موسى أن محمود أمين سليمان لا يصلح بطلا لعمل فني بالمعنى الدقيق. وأنه كانت تسيطر عليه فكرة أن زوجته تخونه وقد وجب عليها القصاص. ولعل في هذا سر عطف الكثيرين عليه في حينه. ولم يثبت أن زوجته نوال عبد الرءوف قد خانته أم لا. إنه كان واهما. لكن نجيب محفوظ جزم وحزم الأمر وأكد هذه الخيانة في روايته.

فنحن نعلم أن محمود أمين سليمان قد سيطرت عليه فكرة أن محاميه بدر الدين أيوب، الذي تولى الدفاع عنه في سرقاته والذي تزوره زوجته في مكتبه، قد أقام علاقة آثمة معها.

في الوقت الذي يَصِمُ نجيب محفوظ زوجة سعيد مهران بالخيانة، يصور نور الغانية بصورة بيضاء ناصعة. ومحفوظ ينحاز دائما إلى هذه الطبقة من الغانيات. ففي واحدة من قصصه القصيرة القديمة، يصور غانية بطلة وطنية، بينما شيخ المسجد ينحاز إلى الإنجليز ويخون وطنه.

ويُظهر نجيب محفوظ مقدرة ودراية بتصوير طبقة الغانيات ويبرر عادة سقوطها ابتداء من حميدة بطلة زقاق المدق، وريري بطلة السمان والخريف ونور بطلة اللص والكلاب،. فنور مخلصة بلا حدود في مقابل الزوجة الخائنة والابنة المنكرة لأبيها والصديق عليش صدرة الأشد فتكا من جميع الأعداء، والمرتد رءوف علوان الذى حوَّل مبادئه إلى رطانة تبريرية.

تقوم نور بواجبات مهنتها في مثابرة يمليها عليها ضمير يقظ، قانعة بالقدر والنصيب. فهي تتعامل مع الزبائن بجدية وكأنه عمل تطهيري. هي أشبه بفتيات الجيشا في اليابان اللائي يُضفِن إلى عملهن مسحة من القدسية، وغاية سامية. فعندما يتعاملن مع رجال الأعمال جنسيا، يساعدنهم على الراحة والاسترخاء، مما يؤدي إلى أن يعملوا بقدرة أكبر على زيادة الإنتاج وبناء الاقتصاد الياباني.

ميرامار والتنبؤ بالنكسة

"ميرامار" هي الرواية الوحيدة "لنجيب محفوظ" التي تدور أحداثها كلها في الإسكندرية. فعلى الرغم من أن رواية اللص والكلاب مستوحاة من حادثة حدثت بالفعل في الإسكندرية؛ فإن نجيب محفوظ استحضر مدينة القاهرة عندما كتبها. والإسكندرية في السمان والخريف تبدأ عندما يتقابل عيسى الدباغ مع ريري أمام تمثال سعد زغلول الشهير على بحر الإسكندرية.

لكن في "ميرامار" "نجيب محفوظ" يعيش داخل البنسيون، ولا شك هو يستدعي ذكريات قديمة عندما كان يسكن بنسيونا مثل

هذا، أو ربما هو نفس البنسيون الذي كان يسكنه عندما كان يأتي إلى الإسكندرية في وقت من الأوقات.

بنسيون قوادة أوشكت على التقاعد في محطة الرمل، أكثر أماكن الإسكندرية حركة وبهجة وحيوية وزحاما، حيث المسارح ودُور السينما والأنوار اللامعة الكاشفة والسهر حتى الصباح. امرأة يونانية عجوز، ومقهى يوناني قديم في أسفل العمارة الضخمة الشاهقة التي تطالعك كوجه قديم. والمضيفة في البنسيون ماريا بلا أبناء نتيجة لعقم زوجها وعقم عشاقها الكثيرين، تؤمن بالحب وتذيبها الأغنيات العاطفية الحالمة وتقدم لكل نزيل يصطحب امرأة سريرا بأسعار لا تُبارى، وهي في ذلك مثل "غلمة" التي يضرب العرب بها المثل في الزِّنَى. فيقولون "أزنى من غلمة". فغلمة بعد أن أصبحت غير قادرة على ممارسة الحب؛ جاءت بالخراف وجعلتها تمارس الحب أمامها لتتلذذ هي من رؤيتها.

كتب نجيب محفوظ "ميرامار" في خريف ١٩٦٦ كاشفًا عن خلل في التركيبة الاجتماعية، رغم مرور أكثر من عشر سنوات على قيام الثورة. والخلل في الطبقات الاجتماعية لم يعالج، والصدع لم يلتئم.

صدرت رواية "ميرامار" قبل بضعة شهور من هزيمة يونيه ١٩٦٧ .كتب نجيب محفوظ الرواية في صورة الرباعية لكي يؤكد فكرة الانعزال التي تعيش فيه كل شخصية من شخصيات الرواية، ويؤكد انفصال الشخصيات الأربع، وعدم التوافق والالتئام لكل طبقة تمثلها الشخصية.

أو أن كتابة نجيب محفوظ لأول رواية كاملة عن الإسكندرية جعلته يستحضر رواية "رباعية الإسكندرية" للورانس داريل الشهيرة. فأخرج الرواية بهذا الشكل القريب جدا من شكل الرباعية الذي اعتمد على سرد الأحداث من خلال رؤية كل شخصية من شخصياته الأربع: جوستين، وبلتازار، ومونت أوليف، وكليا.

ولقد اجتمع داريل ومحفوظ في تصوير الطبيعة والمكان في الإسكندرية بوصف قريب. فالنغمة المميزة التي يوردها الكاتب في مفتتح حديثه عن عامر وجدي قريبة من اللغة الشعرية التي يتحدث بها داريل عن الإسكندرية.

لم يصور داريل الحياة في مصر، بقدر ما صور حياة الجاليات الأوروبية التي تعيش في مصر. وبنسيون نجيب محفوظ لا يضم سوى الذين جاءوا من خارج الإسكندرية. وعادة ما يكون سكان الفنادق والبنسيونات من خارج المدينة التي يقع فيها الفندق أو البنسيون.

ولكل من الرواة الأربعة نغمته المميزة التي يوردها الكاتب في مفتتح حديثه. فعامر وجدي يقول: الإسكندرية قطر الندى، نفثة السحابة البيضاء، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء، وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع. ومن هذه الجملة أخذ أسامة أنور عكاشة اسم مسلسله التليفزيوني الشهير "الشهد والدموع".

أما حسني علام الشاب الباحث عن المتعة، والهارب من جدية الحياة التي لا يقدر عليها، فيقول: "فريكيكو لا تلمني".

وسرحان البحيرى يقول: "هاى لايف، معرض أشكال وألوان مثير للشغب".

الرجال يأتون إلى البنسيون من بعيد، طُلبة مرزوق الذي أطاحت الثورة بفدادينه الألف فأشعرته القاهرة بهوانه، بعد أن كان وكيلا لوزارة الأوقاف. جاء هاربا من الريف الذي شهد سطوته وغناه، وهربا من القاهرة، أيضا، إلى عشيقته القديمة ماريا علّه يستعيد لحظة من لحظات الماضي التي ولّت.

طلبة مرزوق: شبح من أشباح الماضي، فهو موضوع تحت الحراسة لمواقف وأعمال غير شرعية فعلها. وهو يرى أن الاعتداء على ماله اعتداء على كون الله وسنته وحكمته. يبحث عن الدين فقط للدفاع عن ماله. وفي غير هذا، هو داعر مستهتر لا يتورع عن العبث دون اعتدال. ويرى أن سعد زغلول كان السبب في كل ما آلت إليه الأحداث. فهو الذي بذر بذرة الثورة الخبيثة التي نمت وأتت ثمارها في يوليو ١٩٥٢.

وعامر وجدي صحفي في الثمانين، اعتزل العمل وجاء إلى البنسيون لأنه لا يعرف مكانا أفضل يذهب إليه. هو لم يخلف ذرية أو حتى ذكرى. وهو يعشق سعد زغلول ويكاد يقدسه بعكس طلبة مرزوق.

وأعتقد أن نجيب محفوظ، هو الآخر، يحب سعد زغلول إلى هذه الدرجة. فقد حكى لي الأستاذ يوسف القعيد أنه بكى فور موت جمال عبد الناصر في حضور نجيب محفوظ. فقال محفوظ دون

أن يتأثر بشيء: "لقد بكيت بعد موت سعد زغلول، ولست على استعداد أن أبكي على زعيم غيره".

عامر وجدي خصَّه نجيب محفوظ بمساحة كبيرة من صفحات الرواية، فهو يشغل أكثر من ثلث الرواية، وذلك لعدة أسباب أهمها: أنه صحفي وكاتب ذو بلاغة في الأسلوب، وعمله الكتابة والتأمل والتعليق على الأحداث. ومن الطبيعي أن يكتب عما يراه في البنسيون الذي يعيش فيه. وأعتقد أن شهادته كانت من هذا المنطلق. فقد كان مجرد متابع، ودوره في الأحداث غير مؤثر. كما أنه رجل معتدل، ليس مغاليا في كره الثورة كطلبة مرزوق، ولا منفلتًا أخلاقيا كحسني علام. ولا انتهازيا كسرحان البحيري. ولا مغاليا في رومانسيته كمنصور باهي.

عامر وجدي رغم معاناته الآن، لا يزال يحب هذا البلد ويدافع عنه. تعدى الثمانين وابتعد عن القاهرة، مركز التوهج والإعلام، التي تذكره بأنه قد شاخ ولم يعد قادرا على مسايرة الصحفيين الجدد. فهو، في رأيهم، يحمل جسدا محنطا يخفيه تحت بدلته السوداء التي اشتراها في عهد النبي نوح.

هروب عامر وجدي من القاهرة أمر طبيعي لمن هم على شاكلته. فأعرف كاتبا كلما سافر إلى القاهرة أصيب بحالة نفسية سيئة لأنها تذكِّره بما حدث له أيام كان موظفا بها. وأعرف آخر؛ ابتعد عن زملائه الذين بدءوا معه الكتابة، لأنهم يذكرونه بأنه لم يستطع أن يكمل المشوار مثلهم.

ما زال عامر وجدي يكتب ببلاغة وإطناب وجزالة عصر المنفلوطي. ورئيس التحرير يريده أن يكتب بلغة جديدة تصلح لراكبي الطائرات.

يأتي عامر وجدي إلى بنسيون كان يأتيه أيام عزه ونجوميته كصحفي وسياسي. أيام كانت المرايا والسجاجيد الفاخرة والقناديل المفضضة، وأيام كانت الإسكندرية أنظف مدينة في العالم.

هناك نقاط تشابه بين عامر وجدي ونجيب محفوظ، الذي لم يتحمس مثله للثورة، لكنه أيضا، لم يناصبها العداء، ولم يدفعه عدم تحمسه لها أن يكره بلده أو لا يبارك خطواتها. ومثله: قضى عمره محبا لسعد زغلول إلى حد بعيد.

لقد جاءت ثورة يوليو فامتصت خير ما في التراث التاريخي وأنهت خبرة عامر وجدي السياسية. ونجيب محفوظ من هذا الجيل الذي وجد الثورة قد حققت أقصى ما كانوا يحلمون به ويطالبون بتحقيقه بالنسبة للعدالة الاجتماعية، وطرد المستعمر واعتناق موقف قومي تجاه مصر والعرب.

وقد لاحظت أن العديد ممن عايشوا سعد زغلول يحبونه إلى درجة حب عامر وجدي ونجيب محفوظ له، فهم يدينون بالولاء له رغم مرور السنوات الطوال على موته. ففي البرنامج التليفزيوني الشهير "النهر الخالد" الذي قدمه المرحوم سعد الدين وهبه مع الموسيقار الخالد محمد عبد الوهاب، تحدث عبد الوهاب عن سعد زغلول حديث العاشق المتيم المعجب، والذي ما زال يحفظ كلماته ويذكر تصرفاته.

حسني علام ثالث هؤلاء الرجال الذين اجتمعوا في البنسيون. إنه يعيش في الماضي، حيث الأهمية تأتي في المقام الأول للمال والحسب دون النظر إلى الدرجة العلمية. لكن ثورة يوليو ٥٢ شجعت التعليم وأقامت أكثر من جامعة حتى في الصعيد، فتغير الحال، ولم يعد الرجل الغني غير المؤهل مطلوبا ولا مهما. فرفضت الفتاة الجميلة ذات العيون الزرقاء زواجه.

رابع هؤلاء هو سرحان البحيري الشاب الريفي الذي جاء من أسرة متوسطة تمتلك رقعة صغيرة من الأرض. استغل ما أعطته الثورة له؛ فأكمل تعليمه وحصل على بكالوريوس التجارة، وعمل وكيلا للحسابات في شركة الغزل بالإسكندرية.

سرحان البحيرى هو المناقض لشخصية حسني علام من حيث التكوين الطبقي، كلاهما من الريف. أحدهما من أسرة كبيرة لكن دون مؤهل، لو لم تقم الثورة لظل حسني علام هو الأهم، ولسعت إليه أسرة الفتاة ذات العيون الزرقاء وغيرها من الأسر الكبيرة؛ تطلب مصاهرته. لقد حظي سرحان البحيري بدراسات عديدة وأصبح نموذجا للانتهازي مثل يوسف السيوفي بطل "الرجل الذي فقد ظله" لفتحي غانم. كلاهما أخذ قطاعا عظيما من الاهتمام النقدي، حتى جعلا الكتابة عن الانتهازية صعبة جدا، مثلما أصبحت الكتابة عن البخل والبخلاء صعبة بعد البخيل لموليير. إن صورت شخصية انتهازية في قصة أو رواية قالوا إنك تأثرت بيوسف السويفي أو تأثرت بسرحان البحيري، وإن صورت شخصية بخيلة قالوا إنك تأثرت ببخيل موليير.

سرحان البحيري هو الممثل للطبقة التي تجدها في كل الثورات. يعمل صانعو الثورة، ثم يأتي هؤلاء لجني ما زرع الآخرون. هو رئيس لجنة الاتحاد الاشتراكي في المصنع. يسرق البضائع ويبيعها لحسابه مستغلا موقفه السياسي.

حسني علام يكرهه لأنه يمثل الطبقة الجديدة التي أزاحت طبقته: " كرهته في تلك اللحظة، به لهجة ريفية خفيفة لصقت به كرائحة طعام في إناء لم يحسن غسله"، ويكرهه منصور باهي لأنه في رأيه يدعي الوطنية والاشتراكية لأجل تحقيق غاياته. بينما منصور باهي يضحي بأشياء كثيرة من أجل غاية يحلم بتحقيقها.

منصور باهي أعلن ارتداده عن الماركسية، فأفلت من السجن بعد أن أرغمه أخوه، ضابط الداخلية، على ذلك، فهجر القاهرة وانتقل من مذيع في إذاعة القاهرة إلى إذاعة الإسكندرية.

منصور باهي شخصية هادئة حالمة في صراع دائم بين ما يمليه عليه ضميره وواجبه، وبين سيطرة أخيه الكبير عليه وانصياعه له، ثم ندمه على ذلك.

كل نزلاء البنسيون يميلون إلى زهرة. تلك الزهرة البرية التي هربت من قريتها في البحيرة بعد وفاة والدها لأن جدها أراد أن يزوجها لعجوز تخدمه.

عامر وجدي لا يرغب فيها جنسيا، ويشاركه في هذا منصور باهي، الذي يعجب بجمالها وطيبتها ويدخر لها البسكويت في الحجرة ليعطيه لها عربونا للصداقة.

زهرة أحبت عامر وجدي كوالدها، وهو يخاف عليها ويحس بالخطر الذي يحيق بها فينصحها بأن تحتاط.

وعندما اكتشفت زهرة خيانة سرحان البحيري لها واجهته. ثار منصور باهي واعتبر سرحان عدوه اللدود، بصق في وجهه صارخا "على وجهك، ووجه كل وغد وكل خائن".

وعرض باهي عليها الزواج لكي يمنع العذاب عنها.

لقد انحاز نجيب محفوظ إلى منصور باهي واعتبره أكثر طهارة من الجميع في البنسيون. فعامر وجدي الطيب، يكتفي بالمتابعة، حتى دفاعه عن زهرة كان دفاعا سلبيا. لكن منصور باهي الوحيد الذي واجه الخائن وقتله نظير خيانته لها.

وسأتجاسر وأقول إن نجيب محفوظ لم يكن منحازا للماركسية حقا، وإنما أراد أن يغازل النقاد الذين كان معظمهم من الماركسيين في ذلك الوقت، لكي يحتفوا بروايته، وأعطاهم المفاتيح التي تجعلهم يقولون إن زهرة هي مصر. إنه قادر على أن يصنع هذا؛ يعبر عن أشياء غير صادق بالإيمان بها، ويصنعها بمهارة وحذق. وهذا ليس جديدا. فقد فعل المتنبي وغيره من شعراء العرب الكبار هذا، كانوا يمدحون ملوكا وأشخاصا، وفي الحقيقة هم يكرهونهم ويبدون عكس ما يخفون، وتأتي أشعارهم غاية في الفن والجودة.

زوار الإسكندرية والذاكرة المحفوظية

لقد اختار نجيب محفوظ شخصية السفاح السكندري الشهير محمود أمين سليمان وكتب عنه "اللص والكلاب"، لكنه أعطاه بعدا

فلسفيا أبعده عن الإسكندرية كمكان، وعن البطل كشخصية سكندرية، فصار سعيد مهران شخصية من الممكن أن تجدها في أي مكان في العالم. وفي "السمان والخريف" جاء عيسى الدباغ إلى الإسكندرية كزائر، أو كهارب من ماضيه ليلتقي بريري التي لا تبعد كثيرا عن نور في "اللص والكلاب"، وعن حميدة في "زقاق المدق". وفي بنسيون ميرامار اجتمع الجميع فيه ضيوفا على الإسكندرية فماريا صاحبته، جاءت من اليونان، وعامر وجدي وطلبة مرزوق جاءا من القاهرة. وكذلك فعل منصور باهي. أما سرحان البحيري وزهرة فقد جاءا من قرية من قرى البحيرة.

كل أبطال نجيب محفوظ جاءوا من خارج الإسكندرية. هو لم يقدم شخصية سكندرية واحدة ذات ملامح سكندرية واضحة.

الهوامش

* العالم الروائي عند نجيب محفوظ. إبراهيم فتحي.

* نجيب محفوظ وتطور الرواية العربية. أ. د. فاطمة موسى.

* دراسات في القصة العربية الحديثة. أ. د. محمد زغلول سلام.

جوستين والشخصية الإسرائيلية فى رباعية الإسكندرية

لورانس داريل من الكُتَّاب الذين يكتبون في سائر دروب الأدب، فهو شاعر، وكاتب مسرحي؛ كتب العديد من المسرحيات؛ أشهرها: "الليمون المر" عام ١٩٥٧، وكتب ثلاثية عن أدب الرحلات.. والعديد من الدراسات الأدبية، هذا بجانب عمله كرئيس لتحرير العديد مـن المجلات الأدبية، لكن أكثر ما اشتهر به داريل هو كتابته للرواية فلديه عدة روايات، منها: الكتاب الأسود، التيه المظلم، نسور فوق السرب وأشهر أعماله على الإطلاق هي رباعية الإسكندرية المكونة من أربعة أجزاء، كل جزء يحمل اسم بطل من أبطال الرواية: جوستين، بلتازار، كليا، مونت أوليف.

عشق داريل الإسكندرية عشق المتيم الولهان، لذا نجده يلح على أن الإسكندرية هي المرآة التي تعكس وجوه أبطال الرواية، وأنها تفعل بالحب ما تفعله معصرة النبيذ بالعنب، وأن الخارج منها إما أن يكون رجلا شهوانيا، أو يعانى الوحدة، أو نبيا. وإنني أتفق مع المؤلف فى هذا، فالإسكندرية أثرت في الأجانب الذين عاشوا فيها،

ومعظمهم اعتبرها وطنه وأصر أن ينتسب إليها، على الرغم من هذا فإن الإسكندرية ـ في رأيي ـ لا تترك على أشخاص رواية ـ رباعية الإسكندرية ـ أثرا يذكر؛ وكان من الممكن أن تقع أحداث الرواية في أي مكان تستعمره بريطانيا في ذلك الوقت، أو أي مكان يتحكم فيه الأوروبيون ويسيطرون فيه على كل شيء، ويكون لهم فيه مجتمعهم الخاص بهم. فالرواية تركز أكثر على الأجانب الذين يعيشون في الإسكندرية، ودور المصريون ـ في الرواية ـ باهت، حتى نسيم المصري الذي أعطاه داريل دورا كبيرا في الأحداث، يعيش مثل الأجانب، وأخلاقه وعاداته لا تختلف عنهم كثيرا. وما يؤكد ذلك، أنهم عندما حولوا الرواية إلى فيلم سينمائي؛ وتم تصويره في تونس، لم يحدث أي تغيير يذكر. فعلى الرغم من بقاء داريل في الإسكندرية لسنوات عدة موظفا في الخارجية الإنجليزية؛ فإنه عاش فيها كالسائح؛ لم يتعمق في الشخصية المصرية ويبدو أنه لم يجد الوقت الكافي لذلك، فقد كان مشغولا بالحرب العالمية الثانية، وعمله المرتبط بهذه الحرب. وعند زيارته لمصر عام ١٩٧٩ ليصور التليفزيون الإنجليزي برنامجا عن روايته "رباعية الإسكندرية"، ويسجل الأماكن التي ذكرها في روايته، سأله الأستاذ فتحي الإبياري(١).

ـ لكنك وصفت حي رأس التين وصفا كئيبا مقززا، وذكرت أن فيه وكرًا للبغاء. وهذا لم يحدث إطلاقا في ذلك الوقت؟

فأجاب داريل:

ـ أعترف بأن هذا لم يحدث في الإسكندرية، لكن هذا المنظر اقتبسته من حي البغاء الذي كان موجودا في الأزبكية بالقاهرة ، لقد كان عالما غريبا شاذا، مثيرا.

لم يكن يعرف لورانس داريل أن الإسكندرية كان بها أكثر من حي للبغاء في الزمن الذي كتب عنه روايته، عندما كان موظفا في الخارجية الإنجليزية، وكان هذا المكان في منطقتيّ "اللبَّان" و "الهماميل".

**

تبدأ الرواية بجوستين اليهودية المدللة من زوجها نسيم ذى الشهرة الواسعة في الإسكندرية لثرائه الفاحش، والمدللة من رجال كثيرين منهم: القنصل الفرنسي في الإسكندرية، والراوى. وكان قد أحبها أيضا يعقوب الأرناءوطي ـ زوجها الأول قبل نسيم ـ وهو يهودي مثلها، وكابوديستريا اليهودي الشهواني الذي اغتصبها وهى صغيرة. وكليا ـ وهى امرأة ـ أحبت جوستين، بل إن علاقتها بها هي التجربة العاطفية الوحيدة في حياتها.

قابلت جوستين الراوي وهو يلقى محاضرة عن شاعر الإسكندرية العظيم اليوناني الأصل "كفافيس". وتبدأ العلاقة بينهما، عن طريقها يتعرف الراوي إلى نسيم الغنى جدا وصديق الملك نفسه. وبذلك تفتح مجتمعات الإسكندرية الراقية ذراعيها

للراوى ـ رغم إمكاناته المالية المحدودة، بل لجأ إليه البعض ليكون واسطة بينه وبين جوستين، فقد جاءه بومبال ـ موظف القنصلية الفرنسية ـ قائلا:

ـ رئيسي، القنصل العام، يكنُّ لجوستين عاطفة قوية، ولقد باءت بالفشل الذريع كل محاولاته للقائها، وقد أخبره أحد جواسيسه بأن لك دالة في محيط الأسرة، وهو يأمل أن يحل محلك في أمورها العاطفية.

ويثق نسيم في الراوي حتى أنه يستدعيه ويذهبا معا لإنقاذ جوستين، فيجدانها فى دار دعارة للمومسات الصغيرات بحي رأس التين: تبحث هناك عن ابنتها ـ من زوجها يعقوب الأرناءوطي ـ والتي سرقها منها. على أساس أن هذا هو المكان الملائم لوجود طفلة فى مثل عمر وظروف ابنتها.

وكان للراوي صديقة اسمها ميلسيا: امرأة جاءت من أزمير، مملوءة بالأمراض، سوء تغذية، هستيريا، إدمان كحول وحشيش ودرن ودبان هندى. قابلها ـ أول مرة ـ عندما سكرت وحطمت شقة مجموعة من البحارة بعد أن جاءوا بها كامرأة ساقطة، فضربوها، فصرخت حتى التف الناس حولها، فحملها الراوي إلى حجرته واعتنى بها هو وخادمه الأعور (حميد)، ثم نقلاها إلى المستشفى اليوناني للعلاج. من يومها وهى صديقته، وقامت بينهما علاقة غريبة، فتذهب هي إلى كابوديستريا وتنام معه لتخلصه من دينه، وتعود بالصك مكتوبا عليه (خالص). ويقترض ـ هو ـ من جوستين (عشيقته) ليرسل ميلسيا لتكشف على صدرها بالأشعة.

لكن ميلسيا تحس بالغيرة من علاقته بجوستين، وفى لحظة ضعف تقترب من نسيم ـ زوج جوستين ـ وتخبره بعلاقتها بالراوي. فيرسل نسيم في طلبها في مكتب، ويُخرج دفتر شيكاته ويسألها: كم تريدين لتصمتي؟.

ويدعو نسيم الراوي لرحلة صيد في مريوط، تحاول ميلسيا أن تثنيه عن الذهاب إليها؛ خشية أن ينتقم نسيم منه، لكن الراوي يصر على الذهاب، ويموت كابوديستريا في هذه الرحلة، يقتل بطلق ناري، ويقبض البوليس على حامل بندقيته المصري. وترحل جوستين إلى إسرائيل فيتحول الجميع ـ بعدها ـ إلى موات: تموت ميلسيا في مصحة درن بأورشليم، وينقل بومبال إلى القنصلية الفرنسية بروما، ويذهب نسيم إلى كينيا في إجازة بعد أن تحول من رجل رقيق إلى سوقي، وترهل جسده، وصار يتنقل من كازينو إلى آخر، ويسهر إلى وقت متأخر من الليل فى المنتزه، ويقبل الراوي العمل مدرسا في مدرسة بالصعيد.

داريل.. والجذور الأخلاقية للطبيعة الصهيونية

كل الشخصيات اليهودية فى الرواية ـ وجوستين بالذات ـ ترتبط ارتباطا كبيرا بالشخصية الإسرائيلية بكل تعقيداتها واضطرابها، ففي التعبيرات الإسرائيلية الشعرية يرون أن الرب قد اتخذ من أمتهم عشيقة له، ثم تزوجها زواجا أبديا؛ حتى إنها إذا خانته ودنست شرف العلاقة بينهما، لم يطلقها ـ كما يفعل أي مخلوق من البشر ـ لكنه يكتفي بأن يغضب ثمَ يرضى، وأن يعاتب ثم يصفح،

فهي الأمة الحبيبة المعشوقة المدللة التي تعلم - مقدما - أن الرب لن يجرؤ يوما على قتلها مهما أجرمت(٢). كذلك فعل نسيم (المسيحي) مع جوستين اليهودية. يعرف خياناتها له: "فإن حياتهما الفخمة المنطلقة والتي لا تراعى أي عرف أو تقليد قد جعل لها سمعة خاصة بين قاطني المدينة المحليين. اشتهرت جوستين بكثرة عشاقها، ونظر إلى نسيم باعتباره زوجا مجاملا".

ويغفر نسيم لها كل ما تفعله، فقد كانت بالطبع سيئة في أمور عدة، لكنها كانت أمورا بسيطة، كما أنه ليس في وسعى أن أقول إنها لم تؤذ أحدا. لكن هؤلاء الذين آذتهم أكثر من غيرهم، قد صيرتهم أكثر نضجا.

ويقول الراوي في صفحة ١٢ من الرواية:

"إنني كثيرا ما أفكر - والرهبة تخيم عليّ - في حب نسيم لجوستين. أي حب يمكن - في ذاته - أن يكون أكثر عمقا وأمتن أساسا من ذلك الحب. لقد لون تعاسته بنوع من النشوة باستعذاب الألم الذي تتوقع أن تلقاه عند القديسين، لا مجرد العشاق".

وهكذا تتحول الخيانة الزوجية إلى عمل تطهيري مقدس إذا كانت من جوستين اليهودية ضد نسيم المسيحي، وذلك لأن الشخصية الإسرائيلية مدللة إلى حد كبير ويغفر لها خياناتها دائما.

ويختلف الوضع إذا كانت الخيانة من يهودي إلى يهودي آخر، فيعقوب الأرناءوطي ـ زوج جوستين الأول ـ لا يرى فيها سوى أنها امرأة مصابة بالهوس الجنسي السحاقي، فيضربها قائلا: أرفض أن أكون قوادا لملذاتك، ويجب أن تتحملي أثقالك بنفسك، إنك تسعين ـ وبلا هوادة ـ إلى أن أستعمل سوط التعذيب"(٣).

لقد كانت جوستين بالنسبة لداريل تجسيدا لكل متناقضات البشر، فهي حورية من الجنة، ومصاصة دماء في الوقت ذاته.

ويصل عشق القنصل الفرنسي لها، لأن يقول بومبال ـ أحد مرءوسيه في القنصلية الفرنسية ـ:

ـ إن القنصل عاجز عن التفكير في أي شيء سوى جوستين، وقد انشغل الموظفون ـ طوال أسابيع ـ في جمع المعلومات عنها، تحيا فرنسا.

وهكذا صور داريل "جوستين" في صورة أسطورية، ولم أرَ ـ ولا حتى في الأساطير ـ امرأة تجمع حولها كل هذا العدد من الرجال الذين يقدسونها، وإمعانا في جعلها شيئا بعيدا عن البشر فهو لم يحددها بإطار ولا ملامح لتحديد الهدف الذي أراده. فيقول: "هناك موضوعان من العبث أن يطرقهما المرء مع جوستين: عمرها ومنبتها، لم يكن هناك من يعرف ـ وربما نسيم نفسه ـ شيئا مؤكدا عنها، حتى متمجيان ـ علام المدينة ـ والذي يعرف كل شيء عن هذه الطبقة بدا عاجزا هذه المرة أمام ذلك.

ورسمت" كليا" صورة لجوستين من فرط عشقها وتعلقها بها، وأمسكت "كليا" أنفاسها وحملقت فى الصورة بكل الحنان الذي يمكن أن تبديه أية أم نحو طفلها الذي تعرف مدى قبحه، ولكن بالنسبة لها لا يقل جمالا عن أي طفل آخر.

لا يمكن أن تحب امرأةٌ امرأةً أخرى، كأم تحب طفلها، وتتعامل مع صورتها بكل هذه القدسية، وإنما أراد داريل أن يصور جوستين كنموذج للشخصية الإسرائيلية التي استطاعت في هذه الفترة التى سبقت الاستيلاء على فلسطين، أن تفرض الإعجاب على الكثيرين بالدعاية الكاذبة، فقد كتب الأستاذ فتحي رضوان في مقالة له بمجلة الثقافة ـ بأنه في شبابه تأثر بالإعلام اليهودي، وأعجب بما يفعله اليهود في فلسطين، إذ قامت مدينة "تل أبيب" الإسرائيلية مدينة عصرية نظيفة منسقة، كما قامت منشآت تربوية ومصانع وفنادق، وفى مقدمتها فندق "هرزليا" نسبة إلى هرتزل نبي الصهيونية ومؤسسها، وكان الوفد مكونا من خلاصة المثقفين والرياضيين المصريين، ويذكر الأستاذ فتحي رضوان أن السيد أمين الحسيني ـ رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، وقائد كفاح الفلسطينيين ضد الغزو الصهيوني ـ قد رجا القائمين على أمر الرحلة، بأن يعدلوا عن زيارة "تل ابيب"، فلما لم ينجح، رجاهم أن يعدلوا عن المباراة التى ستقام بين الفريق المصري واليهودي، باعتبارها نشاطا عاما، تجتمع له في ملعب العاصمة الصهيونية الألوف فتتحول المباراة إلى مظاهرة مصرية ضد الفلسطينيين العرب، ولم يلتفت أحد إلى رجاء السيد أمين الحسيني، بحجة أن

الرياضة أخلاق، وأنهم قد وعدوا بإقامة المباراة، وأن إخلاف الوعد بين الرياضيين جريمة لا تغتفر.

ولم يدرك أحد أن هذا النشاط الذي يعجبون به، ويثنون عليه، ويتمنون له النجاح، هو نشاط مُعادٍ، لا للفلسطينيين بل لمصر ذاتها(٤).

**

من الثابت أن الاسم (يهودي) جاء نسبة إلى سبط يهوذا (بالدال أو الذال)، وهي تلك العشيرة من أبناء يعقوب (إسرائيل) التي نبغ منها داود وسليمان، أعظم حكام بنى إسرائيل على الإطلاق، فانتسب الشعب كله إلى عشيرتهما وحملوا اسم اليهود(٥). والمأثورات الخاصة بيهوذا تصوره رجلا بعيدا عن الاستقامة والقداسة والطهارة؛ حتى إن أرملة ابنه تحمل منه سفاحا(٦).

والهوس الجنسي - أيضا - هو أهم ما يميز شخصية جوستين والشخصيات اليهودية الأخرى في الرواية، فتقول جوستين عن نفسها:

- لقد فعلت أشياء كثيرة في حياتي، ربما كانت أشياء شريرة، ولكنني لم أفعلها وأنا عاقلة، وبدون هدف، لقد أخذت الأعمال - دائما - كأنها رسالات، رغبات يحملها الماضي للمستقبل، رغبات تدعو المرء أن يتعرف على ذاته (٧).

وتقول أيضا: "الطبيب الذي أحببته أخبرني بأنني مصابة

بالهوس الجنسي السحاقى". ويصور داريل كابوديستريا ـ وهو يهودي، يتصل بصلة قرابة لجوستين ـ في صورة حيوانية نهمة للجنس، يقول عن نفسه:

ـ لقد اختل أسلافي جميعا هنا في الرأس، حتى أبى، لقد كان زير نساء كبيرًا، وعندما غدا عجوزا للغاية كان لديه نموذج مصنوع من المطاط للمرأة الكاملة، بحجمها الطبيعي، كان من الممكن ملؤه بالماء الساخن في الشتاء. كانت رائعة الجمال، وكان يدعوها باسم أمه ويأخذها معه إلى كل مكان.

واستفحل مرض الشخصية الإسرائيلية حتى وصل ـ فى بعض الأحيان ـ إلى الجنون المطبق بسبب أفواج المتطرفين والحمقى والمصابين بالهستريا والهلوسة وجنون العظمة وأحلام اليقظة وأزمات الاكتئاب واليأس والبكاء (٨)، فالشخصية الإسرائيلية تعانى انفصام الشخصية بين الادعاء الكاذب بالعظمة والتفرد وبين واقعها المخزي بين شعوب الأرض، فقد اتخذ اسم اليهود معنى بغيضا بين الأمم، فهم أبناء هذه الطائفة المتمردة، المنطوية على نفسها، الشديدة التعصب إلى جانب صفات أخرى سيئة اكتسبوها من الظروف الشاذة التي عاشوها بين الأمم الأخرى على شكل أقلية محتقرة (٩).

وجوستين ـ أيضا ـ شخصية مريضة على هذا المستوى بين نقيضين: اكتسابها العطف والإعجاب والتقديس ـ أحيانا ـ من بعض الشخصيات لجمالها، أو لضعف في تكوين الشخصيات التي تتعامل

معها، وبين الإحساس بالاحتقار من الآخرين الذين لا تؤثر فيهم الذين يفهمونها على حقيقتها. وتؤكد جوستين هذا المعنى في حديثها عن نفسها: "**إنني أبحث في كل مكان لاقتناص حياة جديرة بأن تعاش، ربما لو كان في وسعي أن أموت أو أُجن لأمدني ذلك بؤرة تتجمع فيها كل مشاعري التي لم تجد لها متنفسا صحيحا**"، وتقول أيضا عن نفسها: "**أيتها اليهودية المتعبة، الدعية، المختلة، كم نبدو نحن غير أسوياء، وكم تبدو تلك العجرفة التى ورثناها ثم نورثها لأبنائنا**"(١٠).

داريل والصهيونية.. تمزيق النسيج

وفى كل المجتمعات اليهودية يتكون مجلس من اليهود كحكومة سرية داخل الدولة التابعين لها، يخضع له كل اليهود، يفرض عليهم الضرائب، ويصرف من تلك الضرائب على فقراء اليهود، وعلى المنشآت الخيرية اليهودية، وتقوم هذه المجالس بتوقيع العقوبات على اليهود واستدعاء الأفراد للمهمات السرية، وسُميت هذه المجالس بأسماء عدة منها: "القهل"، وفى الرواية حكومة سرية داخل الإسكندرية تسمى هذه المرة "بالقابال". يرأسها بلتازار طبيب الأمراض الجلدية والتناسلية اليهودي، والذي كان اختياره لدراسة هذا النوع من الطب عن حكمة فيقول: "**إنني أعيش في قلب حياة المدينة، في جهازها البولي التناسلي، إنه نوع من الأماكن التي تجعل المرء يحس بالعقل وبالاتزان**"(١١).

ويقول عن يهوديته: "**إنني يهودي بكل ما في اليهودية من رغبة**

دموية وتعطش للقذارة على القياس المنطقي، إنها الدليل على نقاط الضعف العديدة في تفكيري، والتي أتعلم كيف أوازنها مع بقية نفسي، وذلك بشكل رئيس عن طريق القابال"[١٢] . وتضم القابال مجموعة أخرى غير يهودية كنسيم والراوي وغيرهما ـ كما يحدث دائما فى الجمعيات التي أنشأها اليهود في العالم والتي يمكن أن تضم عناصر أخرى غير يهودية، كالماسونية والنورانية.. إلخ، ويكون هدفها الرئيس هو تدمير الحكومات والأديان بادعاءات كاذبة، مثل:

● الوصول إلى حكومة واحدة تكون من ذوى القدرات الفكرية الكبرى.

● تجميع كل الأديان في دين واحد لكي لا يحدث صدام أو حروب بين البشر.

ويغلف بلتازار دعوة القابال السياسي بدعوات أخرى بعيدة عن النواحى السياسية.

● القابال: علم ودين معا، لم تفعل أي من الديانات العظمى أكثر من المنع والحرمان وإضافة قائمة طويلة من المحرمات، إلا أن المحرمات تخلق الرغبة التى أرادت الأديان علاجها.

● إن رسالة القابال ـ إن كان لها رسالة ـ أن تشرف الوظيفة الإنسانية حتى من قدر الأكل والإفراز ليرتفع إلى مرتبة الفنون.

يريد بالتازار أن يقول أن ليس للقابال هدفٌ سياسىٌ، لكنها دعوة

لفلسفة كل الأشياء حتى عملية الأكل والإفراز. لكن الراوي يذكر في صفحة ١٦:

"كنت أمر بها يوما بعد يوم وأنا فى طريقي إلى مقهى الأقطار حيث ينتظر بلتازار بقبعته السوداء ليلقى عليَّ بتعاليمه" أى تعاليم هذه التي تلح على بلتازار - رئيس القابال - لأن يأتي إلى المقهى ليمليها علي الراوي، إذا لم تكن تعاليم سياسية، كما أن القابال تجتمع فى كوخ مهمل من أكواخ الحراسة بنى عند الحوائط الترابية لسد قريب للغاية من عمود بومبي (عمود السواري)، تُرى ما الذى يدفع بمجموعة من الشخصيات المهمة والملحوظة فى المجتمع للاجتماع في حي "كوم الشقافة" الشعبي والقريب جدًا من مدافن العمود؟!

ويجيب داريل عن ذلك السؤال: "أعتقد أن حساسية البوليس السقيمة للاجتماعات السياسية هي التى أملت اختيار هذا المكان".

وكانت الحلقة الداخلية للقابال تتألف من اثني عشر عضوا منتشرين بصورة واسعة على طول البحر المتوسط: في بيروت - ويافا - وتونس.. إلخ، وفى كل مكان من هذه الأماكن يوجد معهد علمي صغير مكون من الدارسين الذين يتعلمون استعمال الحساب الغريب (حساب التفاضل والتكامل العاطفي) الذي وضعته جمعية القابال عن فكرة الإله.

ونستبعد فكرة حساب التفاضل والتكامل العاطفي هذه؛ لنرى

الموضوع على حقيقته، أية جماعة تلك التي لها فروع على طول البحر المتوسط، والتي تجتمع بعيدا عن أعين البوليس، والتي يتبادل أعضاؤها رسائل بطريقة الشفرة والرموز، والتي يمكن القول إنها كتابة تُقرأ من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين في أسطر متبادلة؟.

ومن أهم الطرق المستخدمة للسيطرة على الدول عن طريق الجمعيات السرية المشابهة للقابال، هو استعمال الرشوة بالمال والجنس للوصول إلى السيطرة على الأشخاص الذين يشغلون المراكز الحساسة على مختلف المستويات. وثبت ـ من الرواية ـ أن نسيم من المهمين في الإسكندرية، وأنه كان قريبا من الملك نفسه ـ وثبت أيضا أن بلتازار كان يلجأ إلى استخدام الجنس للسيطرة على من يريد السيطرة عليهم، فتقول جوستين:

" لقد كان بلتازار هو الشخص الوحيد الذي في وسعى أن أخبره بكل شيء، لم يكن ليفعل شيئا سوى أن يضحك ولكنه يساعدني بصورة ما على أن أطرد الفراغ الذي أحسه في كل ما أفعل" فلكي يتمكن من السيطرة على أفراد جماعته يصور لهم القيَم والمثُل كأشياء تافهة لا قيمة لها:

- كل غيور على زوجته فاسق.
- إن الحب العاطفي الحاد نوع من الزنى ـ أيضا ـ حتى لو كان من رجل مع زوجته.

وتؤكد سلمى الجيوسي في مقدمة ترجمتها للرواية: أن بلتازار وجماعته كانت لهم أهدافهم السياسية، وأن عملية التفاضل والتكامل العاطفي هذه ما هي إلا غطاء لما يريدون فعله، وتقول: "فجوستين ـ بطلة الرواية ـ مثلا، تستعمل كل أساليب اليهود: السحر، الحب ، الإغراء في سبيل أهداف سياسية".

ولتكتمل صورة الشخصية الإسرائيلية لجوستين فهي عندما أرادت أن تهرب، هربت إلى إسرائيل. واقترحت على (كليا) أن تلقاها للحظات في حيفا وهى مسافرة إلى سوريا، وتتقابلان قريبا من المستعمرة التي تعمل جوستين بها، تقول كليا عن هذا اللقاء: "وقد وجدت ـ في بادئ الأمر ـ صعوبة في التعرف عليها، لقد سمن وجهها كثيرا، وقصت شعرها من الخلف بطريقة مهملة، حتى إنه كان ملتصقا ببعضه كذَنَب الفأر، وفى اعتقادي أنها تضمه أغلب الوقت بقطعة من القماش، لم يعد هناك أثر لرشاقة، أو شياكة الماضي، وتبدو تقاطيعها ـ وقد اتسعت ـ تقاطيع يهودية كلاسيكية، الشفاه والأنف تميل أكثر فأكثر بعضها نحو البعض، لقد صدمت في بادئ الأمر بعينيها اللامعتين وبالطريقة السريعة الصارمة التي تتنفس بها وكأنها محمومة".

لم تعد جوستين ـ داخل إسرائيل في حاجة إلى جمالها ورشاقتها، لقد أدت ما عليها، ولجوؤها إلى إسرائيل هو نهاية المطاف لدأبها وبحثها عن التدليل والتميز من عناصر أخرى غير

يهودية، لتتعامل في إسرائيل مع أشخاص آخرين يبحثون ـ مثلها ـ عن التدليل والتميز من عناصر أخرى، لكن بعيدا في دول أخرى.

**

لقد استطاع داريل ـ رغم أي قول يقال عنه ـ أن يصور بصدق وخبرة واعية ما يفعله اليهود في العالم؛ خاصة في البلاد العربية ، في فترة كانوا يستعدون فيها للاستيلاء على فلسطين، واستطاع ـ أيضا ـ أن يصور التناقض الذي تعيش فيه الشخصية الإسرائيلية من خلال الحالة المرضية التي تعيشها جوستين ـ الممثلة عنده للشخصية الإسرائيلية ككل ـ وتقول سلمى الجيوسي أيضا:

"ولا شك أن القارئ العربي سيضيف إلى معرفته العامة بأساليب اليهود خبرة دقيقة مباشرة، ومهما ذكَّرنا أنفسنا بأن الأحداث والشخصيات من ابتكار الكاتب فإني أظل أرى فيها نسيجا واقعيا يفضح الأساليب التي كان اليهود يتبعونها في قلب الوطن العربي.

الهوامش

١ ـ مجلة عالم القصة ـ سبتمبر ١٩٧٩ ـ العدد الأول.

٢ ـ د. حسن ظاظا ـ الشخصية الإسرائيلية ـ مجلة عالم الفكر ـ العدد الرابع ـ مارس١٩٨٠.

٣ ـ رباعية الإسكندرية ـ الجزء الأول ـ جوستين، ص٢٣ ترجمة فخري لبيب ـ دار المعارف ـ مصر.

٤ ـ فتحي رضوان ـ الصديقان اللدودان ـ مجلة الثقافة ـ العدد السادس ـ مارس١٩٧٤.

٥ ، ٦، ٧، ٨، ــ الشخصية الإسرائيلية: د. حسن ظاظا.

٩، ١٠، ١١ ـ رباعية الإسكندرية ـ الجزء الأول ـ جوستين ـ دار المعارف ـ مصر.

الإسكندرية والسفاحين

الإسكندرية مدينة غير عادية، فقد تم اختيارها كأفضل مدينة على مر العصور، وكانت قرطبة في المرتبة الثانية، ومدينة نيويورك الأمريكية في المرتبة الثالثة. وذلك ليس غريبا على الإسكندرية مدينة الفن والجمال وصانعة الحضارة، وفى ذلك يقول الأستاذ: أحمد لطفي السيد - أستاذ الجيل - في خطبة له في الإسكندرية، نشرت في العدد ٤٤٥ من "الجريدة" الصادر في ٢٣ أغسطس ١٩٠٨:

"الإسكندرية عنوان مصر الجغرافي، كذلك الإسكندريون هم عنوان المصريين في جميع الحركات الفكرية، وطليعة رسل التمدن إلى جوف الأمة المصرية".

ذلك التميز جعل الإسكندرية تفرز الكثير من الفنانين في شتى المجالات، وهذا الحديث معروف ومكرر ولو أوغلنا فيه سيكون من باب الاستطراد والكلام الزائد عن الحاجة. لكن ثمة موضوعا لم يأخذ حقه من الحديث، ولم يلتفت إليه الكثيرون، ألا وهو "هل

الإسكندرية - حقا - مدينة السفاحين ؟!" ففي خلال فترة وجيزة من السنوات (من ١٩٢١ إلى ١٩٦٠) ظهر الكثير من السفاحين، أكثر من أي مدينة مصرية أخرى. وسنعرض لهؤلاء فيما يلي:

الضابط ووكيل النيابة اللذان اشتركا في القبض على ريا وسكينة

١ - ريا وسكينة ١٩٢١

ظهرت ريا وسكينة في حي اللبان عام ١٩٢١، وحكايتهما معروفة، ومشهورة أكثر من حكاية أي سفاح آخر ظهر في مصر، لدرجة أن الكاتب المعروف مصطفى لطفي المنفلوطي استشهد بهما في الرد على عدلي يكن، عندما أعلن بأنه يعمل لصالح مصر، في الأزمة المقامة وقتها من ينوب عن الشعب المصري في التفاوض مع الإنجليز في مسألة الجلاء، سعد زغلول أم عدلي يكن؟، فقال: إن ريا وسكينة ادّعتا - أيضا - بأنهما تعملان لصالح مصر (على أساس أنهما كانتا تختاران للقتل؛ السيدات السيئات لتنظفا البلد منهن).

ويقولون إن منزل ريا وسكينة (٥ شارع محمد يوسف فخر الذي كان اسمه في الماضي ماكوريس) قد ظل مهجورا حتى منتصف الخمسينيات ولم يجرؤ أحد على السكن فيه بعد أن انتشرت الشائعات بأنه مسكون بالأشباح؛ حتى سكنه أحد الفتوات الذي أطلق الناس عليه اسم "محمود ابن ريا" لشهرته الواسعة في الإجرام وعدم قدرة الناس على مواجهته. فكان يدخل البيت ليلا

ويبيت فيه و يخرج بقطع الرخام التي كانت تشكل أرضية المنزل ليبيعه. ونتيجة لذلك انهار المنزل عليه وقام أهل الحي بإخراجه ونقله إلي المستشفى الأميري الذى توفي فيه بعد الحادث بأيام قليلة، وظل المنزل كومة من التراب كان الناس يطلقون عليها اسم "الخرابة" حتي أوائل الستينيات. وقد كنا نذهب ونحن صبية إلى بيتهما الذي كان مهجورا ومحاطا بجدار قصير يمكن أن نجلس فوقه، وكميات هائلة من التراب والطوب تغطيه، وكان الكثيرون يخافون من المرور أمامه، ولو أخبرت أهلي بأنني عائد من بيت ريا وسكينة - في ذلك الوقت - لكان موقفهم منى موقفا صعبا، فكيف سيسمحون لي بأن أطأ أرض الحجرات بقدمَيَّ اللتين وطئتا بيت ريا وسكينة؟!، لكن أزمة المساكن دفعت الناس إلى تغيير معتقداتهم، فقد تم رفع الجدار القصير، ورفعوا التراب والطوب وبيعت أرض البيت بمبلغ ٦٠ جنيها وبني مكانه منزل من خمسة أدوار، وسكنه الناس غير خائفين. الغريب أن هذا البيت أصبح الآن مزارا سياحيا، فعربجي الحنطور الذي يأخذ السياح من أمام البحر، يطوف بهم حول قلعة قايتباى والأحياء المائية وزنقة الستات. ثم يذهب بهم أخيرا إلى بيت ريا وسكينة في حي اللبان، خاصة بعد الأعمال الدرامية التي حكت حكايتهما، فكتب كاتبنا نجيب محفوظ بالاشتراك مع مخرج الفيلم (صلاح أبو سيف) سيناريو الفيلم عام ١٩٥٣ عن تحقيق صحفي لمحرر في الأهرام وكتب الحوار: السيد بدير.

سكينة وريا وعبد العال

وكتب بهجت قمر مسرحية ريا وسكينة؛ فحققت شهرة واسعة خاصة أن الفنانة الكبيرة شادية مثلت فيها، لكن رؤية بهجت قمر في مسرحيته جنحت كثيرا نحو الفيلم الأمريكي القديم " زرنيخ ودانتيلا" عام ١٩٣٩ بطولة كاري جرانت، وتحول هذا الفيلم إلى الفيلم المصري "آخر جنان" عام ١٩٦٦ لأحمد رمزي وعبد المنعم مدبولى ومحمد عوض وثلاثي أضواء المسرح. في الفيلم سيدتان (آمال زايد وثريا فخري) تقومان بقتل الرجال المسنين الذين يشتكون من آلامهم لإراحتهم، وتستخدمان ابن شقيقهما المجنون (محمد عوض) في حمل الجثث ودفنها في حجرة سفلية، فنقل بهجت قمر ما حدث في الفيلم الأمريكي والفيلم المصري من أحداث كوميدية حول حمل الجثث إلى مسرحيته.

وعرضت الشاشة الصغيرة منذ عام تقريبا مسلسلا دراميا عن حياة ريا وسكينة عن كتاب لصلاح عيسى وسيناريو وحوار مصطفى محرم، وكان هذا المسلسل الأقرب إلى الحقيقة.

٢ ـ حسن قناوى ١٩٤٧

كانت قضية حسن قناوي مشهورة في عام ١٩٤٧، جعلت الناس في الإسكندرية ينامون بعد المغرب، والشرطة تبحث، والصحف تكتب عن هؤلاء الرجال الذين يختفون في ظروف غامضة، إلى أن

تم إنقاذ آخر ضحية لحسن قناوى من الموت، واتضحت الحقيقة، وتم القبض عليه بعد اكتشاف أربع جثث لأشخاص آخرين مدفونين في حدائق الشلالات. لكن القاضي أحمد بك الخازندار لم يقتنع بالأدلة التي تدين قناوى في قتل الأربعة، وحاكمه في قضية الشروع في قتل من تم إنقاذه، فدخل قناوى السجن لمدة سبع سنوات قضاها في سجن الأجانب ثم سجن الحدراء، وخرج من السجن وعاش طويلا، لكن القاضي أحمد بك الخازندار قُتل من قِبل أحمد عبد الحافظ ومحمود زينهم عضوَي جماعة الإخوان المسلمين، فكيف يحكم على سفاح معروف بفظائعه بالسجن، بينما حكم على أعضاء من جماعة الإخوان بأحكام أكثر قسوة ؟!. وادعى حسن قناوى أن كل جرائمه كان وراءها الأمير سليمان داود أحد أفراد أسرة الملك فاروق، فقد كان يستخدمه في التخلص من معارضيه، ومن الذين يسببون له قلقا أو مشكلات. ويتردد في الإسكندرية للآن إن هذه الجرائم تمت بسبب الشذوذ الجنسي، فقد كان حسن قناوي يعتدي على ضحاياه جنسيا ثم يقتلهم ويدفنهم في حديقة الشلالات.

٣ ـ سعد إسكندر (سفاح كرموز) ١٩٤٨

ما زلت أسكن حي راغب باشا الذي كان يعيش فيه سعد إسكندر عبد المسيح، الذي شغل الناس في مصر لمدة خمس سنوات كاملة من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٥٣، وقد أثار الرعب والفزع في مدينة الإسكندرية بعد سلسلة جرائم قتل ارتكبها خلال هذه الفترة. وقد

رأيت صورته في الجرائد والمجلات، شاب وسيم شخصيته جذابة، كان على علاقة غير شرعية بامرأة تسكن حي "الباب الجديد" وكان يزورها في بيتها (هكذا شهد الجيران بعد القبض عليه) وانكشفت القضية. هو أصلا من محافظة أسيوط نزح إلى الإسكندرية كمعظم الريفيين الذين يأتون إلى القاهرة أو الإسكندرية بعد أن يصيروا شبابا بحثا عن لقمة العيش، وساعده أقاربه الذين يعيشون بالإسكندرية في استئجار شونة لتخزين الغلال ومنتجات القطن على ترعة المحمودية، ومارس التجارة فيها لسنوات عديدة، لكن لحاجته الشديدة إلى المال، ربما لكي يرضى عشيقته التي تسكن الباب الجديد، وربما عشيقاته الأخريات؛ استخدم الشونة في اصطياد ضحاياه من السيدات والتجار الأثرياء، ويقوم بذبحهم وسرقة ما معهم من أموال ومجوهرات، ويدفن ضحاياه في شونة الغلال..

ويقولون إن آخر ضحاياه استطاع الإفلات منه وهو مصاب بجرح نافذ وجرى، محاولا الهرب إلى الصالة غير المغطاة ـ خارج الشونة، فأسرع سعد إسكندر خلفه وأجهز عليه.

لكن تباعا رأى ما حدث وهو راقد فوق الأجولة العالية في سيارة نقل مرت بالصدفة أمام الشونة في ذلك الوقت، فأبلغ عما رأي وانكشف أمر سعد إسكندر. واستطاع الهرب والاختباء في إسطبل للخيل إلى أن تم القبض عليه.

وبلغ عدد ضحاياه قرابة سبعة أفراد من الجنسين.

ويقولون إن سعد إسكندر كان يبدو رقيقا ومهذبا بعد القبض عليه ، قُدم للمحاكمة أربع مرات وترافع عنه محامى الإسكندرية المشهور في ذلك الوقت "ألبرت برسوم سلامة" واستطاع أن يعطل تنفيذ الإعدام لوقت طويل مدعيا أن المتهم مختل عقليا وهذا ما يدفعه إلى الجريمة.

وأصدرت المحكمة أول حكم لها بالأشغال المؤبدة مرتين ثم صدر حكمان بالإعدام.. تم إعدامه في الساعة الثامنة من صباح يوم ٢٥ فبراير عام ١٩٥٣ وكان آخر ما طلبه وهو في غرفة الإعدام.. كوب ماء وسيجارة، ثم ابتسم ابتسامة غير مفهومة وهو يواجه المشنقة. وأنه عندما نفذ فيه حكم الإعدام كان رابط الجأش، وقد التقى بالمشنقة وكأنه في حفل عرس.

وقد كنا في بداية الشباب نقف في منطقة قريبة من سكننا، بقصد متابعة الفتيات الواقفات في الشرفات والنوافذ، خاصة فتاة بيضاء جميلة تقف كثيرا في الشرفة، فحكى زميلي - في ذلك الوقت - من أنها ابنة واحد من عصابة سعد إسكندر، ولا أدرى ما حقيقة ما قاله زميلي هذا، هل سجن والد الفتاة أو شنق مع سعد إسكندر.

وقد اشترت الشركة الأهلية للغزل شونة سعد إسكندر هذه وضمتها لمخازنها (أيام كان مقر الشركة في حي كرموز)، وكان من الشائع والمعروف والمعلن أن هذا المخزن هو شونة سعد إسكندر، وكان العامل يجيبك بكل بساطة بأنه يعمل في شونة سعد إسكندر.

أو يأمر الكومنده عامله بأن يذهب إلى شونة سعد إسكندر لكي يأتي بكذا وكذا من هناك..

وقد مُثلت بعض الأعمال السينمائية عن حياة سعد إسكندر، لكنها كانت كلها لا ترقى إلى الأعمال التي مثلت عن حياة ريا وسكينة.

٤ ـ سفاحا المشتل ١٩٥٥

محمد عبد العزيز وأحمد على حسن بستانيان يعملان في حدائق محطة قطارات الإسكندرية، في منطقة يطلقون عليها "المشتل"، تقع في منطقة المناورة، حيث تتوقف القطارات للحظات حتى يسمحوا لها بالمرور إلى الرصيف الذي سيقل راكبي القطارات.

المنطقة بعيدة عن العمران، ولا يمكن أن يرى أحد ما يحدث فيها إلا من خلال القطارات التي تتوقف قليلا هناك، أو ربما من فوق البيوت العالية في الشارع الموازى لشريط السكة الحديد؛ والمؤدى إلى ملعب البلدية.

من النادر أن يمر في منطقة المشتل إنسان، وإذا مر فهو يريد أن يستقل قطارا من المخزن ليضمن أن يجد مقعدا خاليا فيه، أو يريد أن يختصر الطريق للوصول إلى بيته. وتخيل من الذي يفعل هذا أو ذاك، لا بد أن يكون بسيطًا وفقيرًا ولا يمتلك في سترته سوى

أموالٍ قليلة جدا. لكن محمد عبد العزيز وأحمد على حسن قررا أن يقتلا كل من يمر أمامهما ويأخذان ما معه، ثم يدفنانه في أرض المشتل.

وتم القبض عليهما، وترافع عنهما محامٍ مشهور في الإسكندرية في ذلك الوقت اسمه وليم اسكاروس، وكاد أن يحصل لهما على البراءة، لولا أن تقدمت امرأة وشهدت ضدهما، ربما رأتهما المرأة من مسكنها العالي وهما يُجهزان على ضحية من ضحاياهما. المهم أن القاضى حكم بإعدامهما، وقد دخلا حجرة الإعدام محمولين من جنود السجن منهارين وكأنهما ماتا قبل أن يشنقا.

وهذان السفاحان أقل شهرة من كل سفاحي الإسكندرية الآخرين، فالكثيرون يعرفون ريا وسكينة وحسن قناوى وسعد إسكندر ومحمود أمين سليمان - آخر السفاحين - الذي سنتحدث عنه بعد ذلك، لكن سفاحا المشتل ظلما ولم ينالا الشهرة التي حققها غيرهما من السفاحين.

السفاح ومصطفى أمين رئيس تحرير جريدة الأخبار

٥ - محمود أمين سليمان ١٩٦٠

محمود أمين سليمان هذا هو السفاح الوحيد الذي عاصرته، وأتذكر أيامه، فقد كنت تلميذا في مدرسة صلاح الدين الابتدائية القريبة من العرضي المخصص لعلاج الحيوانات والذي أصبح الآن

مساكن شعبية، وقريبة من سكن أهل زوجة السفاح التي كان يريد قتلها. والذي ظهر فجأة وتتحدث عنه الصحف كل يوم، ويقولون إنه هرب من السجن، حيث كان يقضى عقوبة السرقة،وقد هدد بقتل زوجته نوال عبد الرءوف ومحاميه بدر الدين أيوب لظنه بأن هناك علاقة آثمة بينهما. ويريد قتل عديله جمال أبو العز لاعتقاده بأنه أبلغ البوليس عنه، وموظف اسمه محمود سليمان لظن السفاح بأنه على علاقة بأخته.

أحس أهلي بالخوف عليّ، وكان الحديث يدور بيننا في المدرسة عن ذلك السفاح وأحواله، لم نكن نخافه، بل امتزج حديثنا بالإعجاب وتمنينا أن نقابله، وتمنى بعضنا أن يصبح سفاحا يحير الشرطة - كما يحيرها السفاح الآن - عندما يكبر.

تحدثت الصحف عن ذهاب السفاح إلى ڤيلاً أم كثوم. حيث كانت ستغني أغنية "أروح لمين" كلمات عبد المنعم السباعي وتلحين رياض السنباطي في مسرح سينما الهمبرا بالإسكندرية، وبعد أن اطمأن إلى أنها بدأت الغناء؛ تسلق أسوار الڤيلاً في الزمالك، لكن الحراس ضبطوه واقتادوه إلى قسم الشرطة، وعندما عادت أم كلثوم من الإسكندرية، أرادت أن تخلصه من تهمة السرقة، لكن الشرطة أصرت.

وفى رواية أخرى أنه تسلق أسوار الڤيلا، وقابل أم كلثوم وطلب منها أن تغني له أغنية أروح لمين التي كانت مشهورة في ذلك الوقت.

واستوحى الكاتب المسرحى الكبير الفريد فرج هذه الحادثة وكتب مسرحية من فصل واحد، يحكى فيها عن مطربة مشهورة يزورها السفاح في بيتها.

واستوحى نجيب محفوظ رواية " اللص والكلاب " من حادث سفاح الإسكندرية " محمود أمين سليمان" الذي شغل الأذهان يوما وأقام الدنيا وأقعدها قُبيل نشر الرواية. وجعلت منه تهويلات الصحافة بطلا، وصورته في صورة الإنسان الخارق القادر على كل شيء. فكانوا يقولون إنه يستطيع القفز من عدة أدوار دون أن يصاب بسوء لأنه خلع عظمتَي ركبتيه في عملية جراحية، واقتفت أثره الكلاب البوليسية حتى فر إلى كهف في الجبل كما تفر الضواري أمام كلاب الصيد.

كانت شخصية السفاح ـ محمود أمين سليمان ـ في الواقع تافهة لا معنى لها ولا قيمة. لمع صاحبها يوما ثم انطفأ وزال أثره في الوجود. لكن أسبابا كثيرة تجعل نسبة كثيرة من المصريين تنحاز إلى الذين يخرجون على الشرعية ويواجهون السلطة؛ حتى وإن كانوا على غير الحق. فالعديد من الأبطال الشعبيين أمثال: أدهم الشرقاوى وياسين ـ حبيب بهية ـ وغيرهما، كانوا مجرد خارجين على القانون أو قطاع طرق. لكن الظلم المتراكم من السلطة جعل العديد من المصريين ينحازون إلى هؤلاء ويعجبون بهم. وأذكر بعد

مقتل محمود أمين سليمان، وكنت قريبا من سكنه، إننى قرأت على جدران "العرضي" في حي محرم بك، عبارة [السفاح عاش بطلا، ومات بطلا].

من الملاحظ أن جميع السفاحين الذين ظهروا فى الإسكندرية من أصول صعيدية، فريا وسكينة من قرية الكلح فى أقصى الجنوب بالقرب من مدينة أسوان، وسعد إسكندر من محافظة أسيوط وحسن قناوى صعيدى، وسفاحا المشتل صعايدة أيضا. ومحمود أمين سليمان - آخر السفاحين - من أصول صعيدية، وهذا الأمر يجعلنا نتأمل الموقف، فوجود الجبل فى الجنوب وقسوة الطبيعة، والحالة الاقتصادية الصعبة، والطريقة التى يربى بها البعض أبناءهم هناك؛ تجعل الحياة قاسية، فيحكون أن رجلا قتل ابنه لأنه رآه يخاف من الكلب.

وينشأ الطفل وفى وجدانه مفاهيم قاسية عن الحياة. تؤدى إلى العنف، والاستهانة بالأرواح.

المحلات المشهورة فى حينًا

المحلات - في رأيي - مثل البشر تبدأ صغيرة ثم تقوَي وتصير أكثر صلابة، ثم تهرم وتشيخ، وقد يأتيها أمر الله فتموت. تذكرت هذا وأنا أدخل "محل محمد إبراهيم" بشارع راغب باشا بعد أن شاخ وهرم وتكالبت عليه أمراض الشيخوخة، فتساقط طلاؤه وأصبح خاويا. دخلته في آخر أيامه، وأنا عائد من عملي لشراء لمبة كهرباء، طلاء السقف يتساقط، والجدران مشققة وامرأة عجوز تديره، وأخرى أقل عمرا تقرأ في جريدة وبضائع قليلة متناثرة، شعرت بالضيق والأسى، تذكرت المحل عندما كان مضاءً بلمبات النيون، والنجف يحيط به من كل جانب، وركن مخصص لبيع الأدوات الكهربائية يديره فني في الكهرباء يقوم بتركيب لمبات النيون والنجف، وكنت أسأله في أي مسألة تخص الكهرباء، وأتفق معه على الحضور إلى بيتي القريب لتركيب أو إصلاح الكهرباء بعد انتهاء عمله في الدكان. وقسم للبقالة يقف فيه عم توفيق؛ رجل طيب أغلق دكان البقالة الذي كان في شارع راغب باشا وعمل لدى

محمد إبراهيم، وقسم للصيني الذي اشتهر به المحل، وقد تردد وقتها في الإسكندرية: إن التي لا تشتري صيني بيتها من محمد إبراهيم؛ تعتبر لم تتزوج. ثم كبر المحل، فاشتروا محلا في الرصيف المقابل خصصوه للنجف والهدايا وكتبوا عليه دنيا الهدايا، ومحلاً آخر من الناحية الأخرى للثلاجات والبوتجازات. والناصية الرابعة مسرح باسم محمد إبراهيم للحفلات. كل هذا ضاع فجأة، أغلقوا المحالَّ الثلاثة، وصالة الأفراح أصبحت فرعا لبنك مشهور.

يقولون إن محمد إبراهيم قد أغتنى بسبب الحرب العالمية الثانية، فقد كان يتاجر في الشاي، ولديه كميات كبيرة منه، وبعد الحرب تعذر وصول الشاي إلى مصر فارتفعت أسعاره، فاغتنى الرجل وافتتح محله الكبير هذا، وبنى عمارة كبيرة في غيط العنب مواجهة لترعة المحمودية، كنا نراها مِن فوق أسطح بيوتنا، وكنا نحسد ساكنيها، وراجت تجارة الرجل، فقد كان مشهورا بأن أسعاره أقل من كل محلات الإسكندرية، كان مبدؤه: بيع أكثر مع مكسب أقل.

قلت للسيدة العجوز وقتها: إنني حزين لما حدث للمحل؟، قالت: لكل بداية نهاية. قلت: المحل مشهور جدًا، أشهر مما تتوقعين، لقد ذكره إبراهيم عبد المجيد في روايته "لا أحد ينام في الإسكندرية" قال إن والده عندما ترك قريته وقرر أن يعيش في الإسكندرية؛ اشترى وابورًا وبعض لوازم البيت من هذا المحل.

مطت المرأة شفتيها وأعطتني اللمبة الكهربائية وسرت حزينا.

البشبيشي

أقاربي ومعظم أهل الحي يطلقون اسم البشبيشي على أي بائع منتجات ألبان، فأقول لهم: البشبيشي اسم شخص وليس اسم مهنة. لكن شهرة البشبيشي جعلته يرتبط بتجارة منتجات الألبان.

أذكر وأنا صغير؛ البشبيشي هذا، بالبالطو الأصفر وطربوشه وجلوسه فوق مقعد أمام مائدة رخامية مثل العديد من موائده المعدة لاستقبال الزبائن الذين يأتون لتناول سندوتشات الكريمة، والقشدة، وأنواع الجبن المتعددة مع كوب لبن ساخن، خاصة في الصباح.

كان يضع نقوده فوق رف المائدة الرخامي، قروش وصاغات ونصف فرنكات، كل نوع فوق بعضه، وترسلني امرأة شابة تسكن بيتنا مع أمها، ولدت طفلة غير مكتملة النمو، نحيفة إلى حد الخوف من منظرها، لم تكن الحضَّانات التي تنمو الأطفال فيها مشهورة وقتها، فأذهب إلى البشبيشي كل صباح وأمد له التعريفة (خمسة مليمات) قائلا: بتعريفة لبن. فيمسك العملة غاضبا وصائحا: هو فيه بتعريفة لبن؟!، وينظر ناحية مساعده الذي يقف خلف النصبة: إديله بتعريفة لبن.

وأذهب إلى المرأة الشابة التي جاءت من الصعيد بعد أن طردتها زوجة عمها وأم زوجها، لتعيش دون زوج ودون مورد يعينها على الحياة، ومع أم تسقيها المر، وتسبها هي وزوجها وأهله طوال الوقت؛ حتى عملت عاملة في شركة الغزل الأهلية بعد أن ماتت ابنتها وأراحتها من عذابها، وأراحت البشبيشي من لقائي اليومي طالبا بتعريفة لبن.

كان بجوار دكان البشبيشي دكانٌ مماثلٌ له في الحجم تقريبا يبيع فيه الابن الأكبر للبشبيشي الكتب والمجلات القديمة، فكنت أشتري منه مضطرا، فقد كان شرسا في معاملاته، كما أنه يبيع أغلي من باعة الكتب والمجلات في محطة مصر وشارع النبي دانيال.

بعد أن مات البشبيشي، انتقل أبناؤه الكثيرون إلى الرصيف الآخر وافتتحوا محلا كبيرا ببابين من الزجاج يبيعون فيه كل شيء: السكر والأرز والشيكولاتة والشاي والبُن، وظل الدكان القديم مخزنا للبضاعة. واختلف أحد أبناء الرجل وأخذ نصيبه من الدكان وشارك تاجرًا في محل قريب جدًا من محلهم الجديد، يبيعان فيه نفس الأشياء التي يبيعها إخوته، لكن سرعان ما اختلف مع شريكه فقتله، وكنت أسمع إخوته يتحدثون في ذلك مع معارفهم وهم حزاني، ووقفوا بجانب أخيهم على الرغم من اختلافه معهم، وانفصاله عنهم.

لكن المحل أغلق فجأة، وما زال مغلقا على الرغم من مرور السنوات الطوال، وكلما سرت من أمامه، تذكرت الرجل العصامي - البشبيشي - الذي كان يبيع لي اللبن بتعريفة.

أبو حمزة

حلواني دكانه يقع على ناصيتَيْ شارع راغب باشا وشارع إيزيس عندما يتلقيان أمام شارع ١٢ الشهير في كرموز. رجل يميل للامتلاء، كبير الرأس، أصلع، يصنع الحلوى بمهارة، ويبدو من شكله أنه من أصل شامي.

هو أقرب حلواني يواجه الساكنين في غربال وفي منطقة راغب باشا، لذا لا يشترون إلا منه. وهو بحصافته صنع لهم حلوى شرقية وغربية تناسب دخولهم، قطع جاتوه صغيرة الواحدة بقرش صاغ، فكنت ترى علب الجاتوه المقدمة في الأفراح، كلها مشتراة من أبو حمزة.

وكان يساعده رجل واحد، لكن بعد موت الرجل أختلف الورثة كالعادة وأُغلق الدكان مثل غيره.

الحمراوي

أذكر صاحب المحل وهو يبكي ابنه الشاب الذي مات في حادثة سيارة، وترك له ولدا آخر أصغر منه. يطل دكان الحمراوي على شارعي راغب باشا وإيزيس، مكان استراتيجي مهم، الشارعان المهمان يلتقيان عند دكانه. كما أنه يطل على شارع ١٢ الشهير في كرموز. كان الرجل يتاجر في الخردوات، فيأتي أصحاب محلات الخردوات يحملون على أيديهم كميات كبيرة من البسكويت، وأمواس الحلاقة وحجارة الراديوهات وغيرها. وتقف أمام دكانه بسكلتات بثلاث عجلات مصحوبة بصندوق لنقل البضائع إلى المحلات الصغيرة. كان أهم تاجر جملة في المنطقة، لكنه لموت ابنه الكبير - فجأة - دلل ابنه المتبقي، زوجه امرأة بيضاء ذات عينين زرقاوين، أنجبت له ابنا كان زميلا لابني في الدراسة، وكان ابني يزورهم في بيتهم، ويقابل أُمَّ زميله ذات الجمال الواضح. لكن الشاب الذي ورث

الدكان بعد موت والده، لم يقنع بهذه الزوجة الجميلة التي امتلأ جسدها وأصيبت بالسكري، فأحب امرأة متزوجة من ابن عمتها ولديها الكثير من الأطفال، كانت تذهب إليه في الدكان وتأخذ ما تريد، وتقابلا في أماكن عديدة، حتى ماتت زوجته كمدا، فتزوج هذه المرأة التي لم تجد صعوبة في أن يطلقها زوجها ويرتاح منها ومن أطفالها الكثيرين، وتحمّل الزوج الجديد العبء كله، كان ابنه يحكي لابني ـ صديقه ـ عما يفعله، فقد كان يأتي بابنها الصغير في الدكان ويدلله إرضاء لها، وقام بتجهيز ابنتها الكبرى، وزوّجها من أموال الدكان. حتي ذاب الدكان وضاع، وبيع واستغل صاحبه الجديد موقعه الممتاز وحوله إلى قهوة، ورأيت صاحبه القديم، يعمل عند صبي من صبيانه القدامى في شارع جانبي، وعمل ابنه ـ زميل ابني ـ سائق سيارة نصف نقل.

فلفل

كان ابنه زميلا لي في مدرسة قريبة جدا من شارعَيْ منشا ومحرم بك، وفي حفل تمثيلي آخر العام، جاء بملابس والده الريفية وظهر بها أمام التلاميذ والمدرسين وأولياء الأمور.

يبيع فلفل لحم الرأس والفشة والطحال والكوارع وباقي أنواع السَّقَط. دكانه ما زال موجودا في شارع راغب باشا، يسلق لحمه في "قزان" كبير جدا، فتشم الرائحة وأنت بعيد جدا عن الدكان. ويقدم لزبائنه الذين يأكلون عنده في الدكان ـ أول ما يقدم ـ سلطانية الشُّرْبة، وطبق المخلل، ثم يأتي إليهم بالمطلوب. يقف فلفل

خارج الدكان أمام طاسته الكبيرة، يقلي لحم الرأس والفشة والطحال والدرَّة، ويقطع العصبان قطعا صغيرا ويرميها في النار، ويضع هذا كله في أطباق صغيرة، لكن الكوارع وباقي الأشياء المسلوقة لها رجال مخصوصون بالداخل.

وكنت أسير في الشارع الذي أسكن فيه من ناحية غربال، حيث علواية كبيرة، كان ذلك في عام ٧٠ تقريبا، فرأيت صديقي مصطفى بلوزة ومعه شريكه في أتيليه تفصيل ملابس النساء، فدهشت وسألتهما: ما الذي جاء بكما إلى هنا ؟! قالا: تُهْنا ونحن نبحث عن محل فلفل. فأخذتهما إليه، طلبنا كميات كبيرة من الأصناف التي يبيعها، فقلى لنا فلفل، فلفلاً أخضر في طاسة القلية دون أن نطلب؛ إكراما لنا.

يقف فلفل أمام النار وأمامه زحام؛ يطلبون شراء الفشة والدرة والعصبان المحمرة، فيضع هذا في أكياس ورقية، ولأن الشُّرْبة عنده كثيرة جدا؛ فمن الطبيعي أن يأتي الذين يسكنون حوله حاملين حِللاً ويطلبون منه شوية شربة، فيملئُون حللهم بالشربة دون مقابل، يأخذونها ويطبخون عليها ملوخية، أو البامية المفروكة (الويكة). وكنت أرى كل مساء أمام دكانه رَتْلاً من العربات الصغيرة المحملة بالمتبقي من الترمس والخس والأتَّة.. إلخ فأصحابها في الدكان يصطفون في مقاعد متجاورة، يضع عمال المحل سلطانية الشربة أمام كل واحد منهم، ورغيفين ناشفين، فيفتونهما في السلطانية ويأكلون ولا يأخذ فلفل منهم سوى قرش صاغ ثمن الرغيفين.

الشرية كثيرة، وهو يعطيها للمحتاجين بدلا من أن يرميها في الشارع.

الزعبلاوي

عم حسن الزعبلاوي كان بدينا، يقف في أول شارع إيزيس بعربة يبيع فيها المكرونة، نوع معين من المكرونة لا يغيره، حتى اشتهر هذا الصنف باسمه، يقولون إن مصنع المكرونة يصنعه خصيصا له، وأن حسن الزعبلاوي هو الذي اقترح هذا الشكل، وقد رأيت قريبا في سوق باب عمر باشا امرأة تطلب من البائع كيلو مكرونة الزعبلاوي، فيسرع البائع إلى هذا النوع ويبيعه لها.

كان حسن الزعبلاوي يشتري أفضل أنواع الطماطم؛ مهما كان ثمنها مرتفعا، وتعمل عنده فتيات كثيرات يقمن بعصرها بأيديهن، فيتبقى الكثير منها يصلح للعصر، فيعطيه لمن يطلب من الجيران، ذلك قبل أن يشتري آلة كبيرة للعصر لا تُبقي شيئا من الطماطم.

وأمام عربته الكثير من المقاعد يجلس عليها زبائنه، وكان يقف بالعربة طوال اليوم، في أي وقت تجده يعمل هو أو أولاد زوجته التي تزوجها بعد أن كبر، ولم تنجب له سوى فتاة واحدة. يقف سائقو التاكسي وعربات الحنطور في الفجر أو بعده ليأكلوا عنده.

استأجر على الزعبلاوي محلات كثيرة في المنطقة، خاصة المحلات التي كان يقف بعربته أمامها، وذاع صيته في كل الإسكندرية، فقد حكى لي صديقي طارق إبراهيم وهو مساعد

مخرج في السينما، أن الممثل السكندري أحمد آدم، قال لمن حوله في وقت الراحة وهم يصورون فيلما سينمائيا: إللي ما أكلش مكرونة من الزعبلاوي؛ يبقي مش إسكندراني أصيل.

فأكد طارق على كلامه.

مات حسن الزعبلاوي وتولى أمر الدكاكين أبناء زوجته الذين رباهم، وما زلت أسمع الشباب وهم يزفون صديقهم العريس فيقول أحدهم: الزعبلاوي، فيرد الجميع: عنده مكرونة. ثم يقول: عنده مكرونة، فيجيبونه: الزعبلاوي. وعندما أريد أن أركب تاكسي من أي مكان في الإسكندرية، أشير للسائق: عند الزعبلاوي. فيقف، فبيتي قريب جدا من دكاكينه.

أنا والحلاقين والمصوراتية

لا أحب دخول محلات الحلاقين، فجدران دكاكينهم محاطة بالمرايات من كل جانب، وقد ألحت أمي عليَّ - وأنا صغير - بأن أذهب لأحلق شعري الذي طال، وشعري عندما يكبر يصبح مشكلة، فيمتزج بعضه ببعض، ويصعب تمشيطه. وذهبت إلى حلاق قريب جدا من بيتنا، كان دكانه مواجها لمسجد سلطان الشهير بالإسكندرية. وبعد أن انتهى صبي الحلاق من حلق شعري لم يجد فوطة يمسح بها وجهي، فأمسك بطرف جلبابي ورفعه، فإذ بي بلا سروال داخلي، وأسرعت إلى الشارع خجلا. ومرة أخرى ذهبت إلى دكان حلاق مواجها لمكتب بريد راغب باشا، كان اسمه عبد المنعم إبراهيم، وكان قريب الشبه بعبد المنعم إبراهيم الممثل، ووقفت على عتبة الدكان، فنظر الحلاق إليَّ؛ لا أذكر جيدا ماذا كنت أرتدي، قد أكون مرتديا قفطانا، ولعلي كنت حافيا، فقد صاح الحلاق في ضيق: امشي يا ولد.

ومشيت خجلا.

هذان الحدثان جعلاني أكره دخول محلات الحلاقين.

وبعد أن ماتت أمي عام ١٩٥٦ انتقلنا إلى بيت جدتي في حي غربال، وهناك ذهبت إلى أشهر حلاق هناك، كان عجوزا واسمه خلف الله، يقوم بالحلاقة وطهارة الأولاد والتغيير على الجروح وعلاج الأمراض البسيطة. كان خلف الله مشهورا بطقوس يفعلها عند الحلاقة للأطفال، فقد وضع البودرة في قفاي، ثم نفخ فيه عابسا وصائحا: أنت ابن مين ؟ فأجبته في خوف، ثم سألني: اتطاهرت والاً لسه ؟ فقلت: اتطاهرت. فازداد عبوس وجهه، فقد كان يأمل بأن يقوم بعملية الطهارة التي يحصل منها على مبلغ كبير.

وجاء إلى بيتنا ساعٍ في مدرسة يجيد عملية الحلاقة، كان يصيح وهو داخل البيت حاملا حقيبته الجلدية؛ ليُخْلوا له الطريق. فيحلق لأبي ثم يحلق لي ولإخوتي الثلاثة، وكان أخي الصغير ينطق اسمه (عبد الرحمن) بـ (الحمار)، وكان يتحدث طوال الوقت ذاكرا أخبار المدرسين والمدرسات في المدرسة التي يعمل بها، وأخبار الذين يجالسونه على القهوة.

وعندما كبرت واظبت على الذهاب إلى حلاق افتتح محلا جديدا في الشارع العمومي، كان قصيرا وبعينين صغيرتين للغاية، وكان قليل الكلام ـ على عكس معظم الحلاقين ـ يأتي إليه شيخ نظره ضعيف جدا، يعمل زبالا، فيغطي لحيته بقطعة قماش لكي لا تتسخ من الزبالة، وذاع صيته في الحي، فكان يرتدي عباءة سوداء

فوق جلبابه البُني، وطاقية خضراء، ويمسك عصًا ذات مقبض فضي، ويسير معه أتباعه، فيحضرون حلقات الذكر التي كانت تقام كثيرا في الحي، وأسس هناك مكتبه الزينبي (نسبة إلى السيدة زينب)، وضم إليه عددا كبيرا من شباب الحي كانوا يطيعونه ويمتثلون لأوامره. فيعاقب المخطئ منهم بدفع غرامة، توضع في صندوق بقهوة أبو دومة - أقدم قهوة في الحي - أو يأمر المخطئ بأن يصلي العشاء في مسجد سيدي الزهري المواجه للاستاد، فهو بعيد جدًا عن حيِّنا.

كان هذا الشيخ يقضي أوقات فراغه في دكان الحلاق، ويجالسه بعض أتباعه، وفي مرة سمعته ينصح الشبان بعدم الخروج من البيت في يوم شم النسيم لأن المسيحيين واليهود شموا نفسهم عندما مات النبي محمد في ذلك اليوم، فقال له شاب: لكن أنا عايز أتفرج على الماتش في ذلك اليوم (وكانت التليفزيونات في الحي عزيزة وقليلة، فيذهب الشباب إلى شارع إيزيس ويشاهدون ماتشات الكرة في المقاهي الكثيرة هناك) فقال له الشيخ: روح اتفرج على الماتش بس البس بيچامة علشان تبقى نيتك للماتش بس.

فصحت فيه من مكاني: من أخبرك بهذا؟

وكأنني قد فجرت قنبلة في حيز الدكان الضيق، فتابعني الشيخ - الذي يقدسونه هناك - في دهشة شديدة، ولم يتحدث، بينما نظر إليَّ الباقون وكأنهم أمام مجنون، فمن الذي يستطيع

مخالفة هذا القطب في أمور الدين؟! أما الحلاق فقد أمسك بمقصه وتوقف عن إكمال الحلاقة لزبونه الذي يحني له رأسه.

قال الشيخ بعد أن أفاق: قرأت هذا في كتاب "البيان والتبيين".

(رأيت الشيخ كثيرًا في رفقة رجل يسكن الحي، ويعمل ساعيا في مكتبة البلدية، فقد رأيته كثيرا هناك، لا شك أن هذا الرجل يستعير للشيخ كتبا من المكتبة) قلت:

- البيان والتبيين للجاحظ ؟!، وما شأن الجاحظ بهذه الأمور؟

كان الحلاق يشير لي من خلف الشيخ بأن أواصل مناقشته ولا أخافه.

وعندما ضاق الشيخ بي، سألني: أنت ابن مين؟

فقلت له، فصاح: أنت قريبي.

الغريب أن هذا الشيخ قد أذاع في كل مكان في الحي بأنه علمني الكتابة، وأنني أحد تلاميذه.

مجنون فريد شوقي

بعد أن صرت شابا؛ أخذني صديق إلى دكان حلاق قد افتُتح حديثا في شارع متفرع من شارع إيزيس، أكبر شارع في حينا.

كان الحلاق شابا متدينا وطيبا للغاية، ظللت أحلق عنده إلى أن مات، وكانت زوجته تعد لنا طعاما مكونا من (الحلويات) - وهى جزء من معدة البقرة أو الجاموسة - والكوسة وجوزة الطيب، وتضعها في

بورمة وتسويها في الفرن. وكنت أذهب إلى دكانه بعد أن أعود من عملي، ويأتي صديقي الذي عرفني إليه، ونلتهم البورمة، ثم يدفع كل منا ما يخصه من ثمنها.

كان يأتي إلى دكان الحلاق صديق له اسمه مجدي. كنت أعرفه من قبل أن أراه في دكان الحلاق. أعرف أنه طالب في كلية التجارة، وأنه متقدم جدا في الدراسة؛ لدرجة أنه يلخص الدروس ويبيعها للطلبة ليستطيع أن ينفق على نفسه، فقد كان والده - الذي يبدو أقل من عمره بكثير - لا يعطيه إلا القليل وبصعوبة شديدة.

ماتت أم مجدي منذ سنوات قليلة وتركته هو وأخته عزيزة، وتركهما الرجل أيضا، فهو يأتي إلى البيت في آخر الليل، لا يحدث أحدا، ينام دون كلمة واحدة لأحد. بعد أن يخرج من عمله؛ يذهب إلى نادي الاتحاد السكندري، يساعد في تدريب الأشبال، وأحيانا يساعد في المسائل الإدارية. ومجدي غير راضٍ عن تصرفات والده، فهي لا تليق برجل في مثل عمره، لكن الرجل كان رده قاسيا على اعتراضه، فقد أمسك برقبته وطرده من البيت. وظل لدى زميل له في الكلية لشهور عديدة، إلى أن ذهبت عزيزة ـ أخته ـ إليه وأعادته إلى البيت، وعندما عاد الرجل متأخرا ـ ككل ليلة ورآه أمامه، لم يُحيِّه، ولم يعترض على عودته، وعادت الأشياء كما كانت.

الحي كله يذكر نوادر مجدي بكثير من الدهشة والضحك. يسير أمامنا في عصبية، يدخل بيته القديم، لا يحيِّي أحدًا وكأنه لا يرانا.

ومن أشهر نوادره ما فعله مع صابر المسيحي الذي كان يقف خلف البيت ليبيع القصب، فيجتمع أولاد الحي حوله، يلعبون بالقصب، من يستطيع كسره على ركبته أو قصبة رجله من أول مرة، أو يضعون قطعة القصب على الأرض ويرشقون العملة المعدنية فيها، ثم يمصون القصب بعد ذلك، كانوا يُحْدثون جلبة خلف نافذة حجرته التي يذاكر فيها.

كان يجلس فوق مكتبه يذاكر، وأخته في الصالة تحيك الملابس، ووالده في نادي الاتحاد السكندري، حيث يذهب كل يوم. وإذ بأوراق أعواد القصب تتحرك خلف النافذة الكبيرة ذات الشراعة العالية. فترفرف في الهواء وتصنع خيالات مع ضوء المصباح في الحجرة. وخرج مجدي من باب الشقة بيجامته حافيا، وجري خلف صابر المسيحي، ثم عاد إلى البيت، قال في صوت مرتفع: زعازيع القصب حاتجنني من وراء الشباك.

وشاهدته في سينما ركس، يضع ساقيه الطويلتين فوق مسند المقعد الأمامي وهو يتحدث عن السينما ويقول: إن صلاح ذو الفقار قد فرضوه علينا في فيلم "عيون سهرانة" .

وعلمت بعد ذلك أنه تخرج في كلية التجارة بتقدير ممتاز، وعمل في الجهاز المركزي للمحاسبات، يفتش الآن على حسابات الهيئات الحكومية والشركات رأيته في دكان الحلاق - صديقه - حدثته في استحياء عن السينما، فامتحنني، سألني عن أول فيلم أخرجه كمال الشيخ وأول فيلم أخرجه صلاح أبو سيف.. إلخ. وبعد أن اقتنع

بأنني أصلح للحديث معه، سألني: مَنْ أهم ممثل في تاريخ السينما المصرية؟ قلت: زكي رستم. فقال في استخفاف: لا، فريد شوقي. وأخذ يحدثني عن فريد شوقي بحماس شديد. وعلمت بعد ذلك أنه استطاع الوصول إلى فريد شوقي، وعندما وجده مجنونا به رحب به وقربه منه وجعله مساعدا له في حساباته؛ خاصة مع الضرائب، وكان فريد شوقي يقدمه لمعارفه على أنه مجنون فريد شوقي. وحكى لي عن اكتشافه لسرقة كبيرة في سنترال مرسى مطروح، فأبلغ عن ذلك، وبالتنسيق مع الشرطة عينوا أحد رجال المباحث ساعيا في السنترال، وقام بكشف اللصوص، وطريقة سرقتهم، وقد هدده بعضهم بالقتل، وطاردوه، لكنه لم يَخَفْ منهم .

وقد تحدث عن ذلك في جلسة مع فريد شوقي، واتفقوا أن يسجلوا ما حدث في مسلسل تليفزيوني، وأن يقوم فريد شوقي بدور رجل المباحث الذي عمل ساعيا لكشف المخطط، لكن فريد شوقي مات فجأة، ولم يحدث ما أرادوا.

قال لي الحلاق في غيابه بأنهما كانا يدخلان السينما مع مجموعة من شباب الحي، وكان في كل مرة يتشاجر مع الناس، وتسبب مرة في أنهم أخذوا علقة ساخنة من عمال مطعم مشهور في المنشية اسمه أبو غريب.

كنا نجلس في دكان الحلاق أنا ومجدي وصديقي حسن الذي يعمل في مصنع ليفي للسجاد - التابع الآن لمصنع سجاد دمنهور - أحسست بأن مجدي ما زال يعاني مما حدث له في حياته، موت

أمه وهو صغير، واهتمام والده بالكرة في نادي الاتحاد السكندري، وعدم اهتمامه به وبأخته عزيزة التي تزوجت، وتعيش بعيدا عن الإسكندرية، مازال مجدي يشكو من الوحدة، فيأتي من بيته في سبورتنج ليجالسنا في دكان الحلاق.

وزار مجدي حسن في مصنع ليفي، فأُعجب بفتاة هناك وخطبها. وكان يتحدث عنها بحماس شديد، ويذكر مزاياها، وكنت أسمع دون تعليق، لكن حسنًا كان يناقشة ويعارضه أحيانا في مواضيع تتعلق بالخطوبة، وصديقنا الحلاق منشغل بالحلاقة للزبون فلا يعلق بشيء. لكنه في مرة كان يحلق لمجدي شعره، وأراد أن يتحدث ويسلي الزبون، فسأله عن فتاته، وأبدى رأيه في المواضيع التي سبق أن سمعها ومجدي وحسن يتناقشان فيها. فغضب مجدي، وترك الفتاة، فكيف يتدخل حلاق في شئونه الخاصة. واختفي، لم يعد يذهب إلى دكان الحلاق الذي كان صديقه. وفوجئت به رئيس مجموعة الجهاز المركزي للمحاسبات التي تراجع الحسابات في شركتنا. وجلست معه نتذكر جلساتنا في دكان الحلاق.

ومات صديقي الحلاق الذي كان مثالا صادقا لحسن الخلق، وظللت بلا حلاق، إلى أن شكوت لصديق لي بإدارة التدريب بشركتنا (وإدارات التدريب في كل شركات مصر ـ تقريبا ـ عبارة عن مخزن يخزنون فيه الموظفين المغضوب عليهم، كانوا يشغلون حجرات فوق سطح المبنى، يجلسون فيها بلا عمل) فأمسك صديقي بسماعة

التليفون وطلب حلاقا وقال لي: لو أردت بائع مخدرات ممكن أن أطلبه لك بالتليفون. (فالشركة بها باعة اللحم والحمام والدواجن، والملابس والساعات والمخدرات أيضا) وبعد لحظات جاء عامل من عمال الشركة، ممسكا بلفة ورق كبيرة، اتضح أن بداخلها آلات الحلاقة. وحلق لي شعري. وظللت هكذا أحلق شعري في الشركة، في الصيف أجلس فوق مقعد على السطح، وفي الشتاء أدخل حجرة من حجرات التدريب. وكنت مرتاحا لهؤلاء الحلاقين، فهم لا يستخدمون المرايات، ومُقلُّون في الحديث. وفي كل مرة أحلق فيها شعري تغضب زوجتي. وتقول لي: "حد يعمل في شعره كده؟!". ومن الأشياء التي حزنت عليها بعد خروجي من العمل هم الحلاقون الذين كنت أرتاح معهم.

أنا والمصوراتية

لا أحب دخول محلات المصوراتية، فالمصوراتي يجعلني أتابع صورتي بعد أن يصورها؛ وأنا لا أحب أن أشاهد نفسي، ولا أذهب للمصوراتي إلا للضرورة القصوى، استخراج استمارة لابد لها من صورة أو كارنيه، خاصة كارنيه مكتبة البلدية الذي كنت أحرص على استخراجه طوال السنوات الماضية. وكنت أبحث بين أصدقائي عن الصور التي سبق أن أهديتها لهم. وحدث أن أجرت الأديبة والصحفية "سعاد سليمان"حديثا معي، وطلبت صورة، فقدمت إليها واحدة كانت معي في المحفظة، فلم تعجبها، فوعدت بأن أرسل إليها أخرى ولم أفعل، فاتصلت بي في المنزل حيث لم أكن موجودا وطلبت

الصورة بإلحاح، لأن الموضوع لابد أن يصل جريدة القاهرة اليوم، واقترحتُ أن أرسل الصورة إليها عن طريق سائق السوبر جيت، فاتصلت بابني في عمله، وجاء مسرعا، وأخذ الصورة وأرسلها إليها عن طريق السوبر جيت. ونشرت سعاد سليمان الموضوع بالصورة التي سبق أن رفضتها.

وكان الناشرون يطلبون مني صورا لنشرها في آخر الكتاب، فلا أجد، فأبحث بين الصور الجماعية وأقص منها صورة لي؛ تصلح لأن تكون في ظهر الكتاب.

وعندما حصلت على الجائزة الأولى في الرواية وذهبت إلى نادي القصة بالقاهرة لتسلُّم الجائزة، جاءني شاب وقال لي: لقد التقطت لك صورتين، واحدة وأنت تتسلم الجائزة من ثروت أباظة. والأخرى وأنت تزيل الستار عن لوحة الشرف مع ثروت أباظة.

فقلت له: لكنني لا أريدهما.

فشرد الشاب قليلا ومشي من أمامي، ثم عاد ومعه آخر أكبر منه، قال في حدة:

ـ أنت ليه مش عايز الصورة ؟!

قلت: مش عايزها.

وانتهى الموقف بأن دفعت لهم مبلغا صغيرا مقابل النيجاتيف. وأعطاني إيصالا قائلا:

- لـو عـايـز الـصـورة سـتـجـدهـا في الاسـتوديـو. ولم أذهب لتسلُّمها.

وقد جاء إلى منطقتنا مدرس ابتدائي مجنون بالتصوير، وافتتح محلا في شارع راغب باشا، فجعل للتصوير طعما آخر، لم نتذوقه من قبل. كان يتفنن في التقاط الصور؛ متأثرا بالخواجة آرتين الأرمني الذي كان دكانه في شارع عبد المنعم قريبًا جدًا من مبنى مديرية الأمن القديمة، وكانت لديه أساليب جديدة في التصوير، فمرة ترى نفسك في الصورة وأنت تقود طائرة أو دبابة، أو قطار سكة حديد. ومرة مرتديا ملابس الخواجات.. إلخ. هكذا فعل مدرس الابتدائي، فدفع الشباب للحضور إليه، ليتصوروا دون مناسبة، فقبله كان لا بد للتصوير من مناسبة، استخراج بطاقة شخصية، أو تقديم أوراق للالتحاق للعمل.. إلخ. تصور الشباب في أوضاع جديدة عليهم، مرة وهم يضعون وجوههم على أياديهم، ومرة وهم يركبون الموتوسيكل.. إلخ. وكان لدى مدرس الابتدائي ملابس يرتديها المتصورون، فيبدون في صورة لم يروها في أنفسهم من قبل.

وتصور أحد الشباب ممن يهتمون بلعبة كمال الأجسام بأول مرتب له من شركة معسل سلوم التي كانت قريبة من ضريح سيدي أبي الدرداء، وآخر تصور وهو راكع على ساقيه ورافعا يديه لأعلى، وكتب له مدرس الابتدائي - طبقا لطلبه - يارب نعمة. وعلقها الشاب

في دكان بقال - في الحارة - كنا نجتمع عنده كل يوم، لكي تراها نعمة الجميلة التي كان يحبها وهي لا تسأل عنه.

كان مدرس الابتدائي يجلس أمام دكانه في شارع راغب باشا، وحوله مجموعة من الشباب أحبوا مهنة التصوير، فكان يعلمهم كيف يلتقطون الصور، وبعضهم أخذ منه الكاميرا ليصور أهله في البيت، وآخر أخذ منه الكاميرا ليصور الناس في حديقة الحيوانات بالنزهة، وفي شواطئ الإسكندرية صيفا، وكان مدرس الابتدائي يحاسبهم على تحميض الأفلام وطبع الصور. كثير من هؤلاء تحولوا إلى مصوراتية بفضل هذا المدرس الذي أحب التصوير بجنون، وكان يأخذ بعضهم معه لحضور اجتماع نادي الكاميرا بأتيليه الكتاب والفنانين، وبعضهم أصبح عضوا في النادي مثله. وبعضهم افتتح محلات تصوير في محطة مصر ومحطة الرمل.

وبعد موت ابني لم أجد له صورة كبيرة لأعلقها في الشقة، فأخذت صورة صغيرة له - أبيض وأسود - لكي يكبِّرها، وكانت أفلام الأبيض والأسود شحيحة، بعد أن ساد التصوير الملون، لكنه أخذ الصورة مني ولونها بريشته وألوانه، واستخرج منها صورة كبيرة أعلقها في مدخل الشقة للآن.

الأطباء المشهورون فى منطقتنا

عندما كنا صغارا كان العلاج سهلا، فقد كانت جدتي تأخذني في أي أمر يتطلب علاجا إلى مستشفي "احمد ماهر" في محطة مصر، تقطع تذكرة بقروش قليلة جدا، ويأتيها أطباء كبار؛ عياداتهم في محطة الرمل، والكشف عندهم غالٍ جدا. وكنت أذهب إلي مستشفي أحمد ماهر إذا أردت أن آخذ حقنة، فأقف في طابور صغير أمام الشباك وأقطع تذكرة، وأحصل على تذكرة صغيرة، أذهب إلى حجرة مخصصة لأخذ الحقن. كان المستشفى عامرًا، وملاذا لفقراء المنطقة.

وكان هناك مستوصف اسمه "المستوصف الأوروبي" في شارع أبو الدرداء، يعمل به كبار الأطباء بأسعار منخفضة جدا، كشفت عند طبيب كبير في تخصص الأنف والأذن والحنجرة، عيادته في شارع صفية زغلول، وطبيب يهودي اسمه سابا عازر، كان يعمل بها كل يوم جمعة، ويأتيه الذين يشكون من الأمراض الجلدية والتناسلية، فتجدهم يجلسون على سلالم العمارة التي يقع بها المستوصف،

ويقفون في الشارع، كان ماهرا في عمله إلى حد بعيد، وقد حكت لي مديرة في الثقافة بأن ابنها أُصيب بمرض جلدي فعرضته على أكبر الأطباء في القاهرة، ولم يعالجه ويقضي على مرضه سوى سابا عازر هذا.

والأطباء في حيِّنا كان معظمهم من الإخوة المسيحيين، وسأذكر هنا بعض الذين تعاملت معهم:

١ ـ صموئيل إسكندر

عيادته قريبة جدا من " محطة مصر" في بيت قديم تحته بائع فحم، وتسكن عيادته امرأة عجوز اسمها أم محمد، وابنها محمد طوله ضعف طول الطبيب، كانا يعينان الطبيب في عمله، فهو جراح ماهر، ولو كانت الحالة المرضية لها حلول أخرى غير الجراحة، يبدأ بالجراحة، كأنه يعشقها.

أجرى عملية بواسير لقريب لي، وأقام قريبي في عيادته عدة ليالٍ، ولأن قريبي هذا مدمن مخدرات فقد أحس بآلام شديدة بعد العملية، ولم يفلح معه المخدر الذي خدره به الطبيب، ومن شدة الألم كان يدق الأبواب والجدران وأسرته تبكي حوله، وصموئيل إسكندر يتابعه دون حركة، وعندما طلبوا منه أن يعطيه كمية أخرى من المخدر، قال: مقدرش ده خد مخدر يخدر فيل.

وأحست امرأة تسكن بيت جدتي بآلام شديدة في فخذها، جعلتها تصرخ طوال الليل والنهار، وذهبوا بها إلى المستشفى

الأميري وحجزوها لأيام قليلة، وخرجت منه دون فائدة، فلم يعرفوا ما بها، وكان الحل أن تذهب إلى صموئيل إسكندر، الذي عرف أن هناك خُرَّاجًا داخل فخذها ولا بد من إجراء عملية في الحال، ولأن المرأة فقيرة، فقد اعترضوا على القيمة التي يريدها في العملية، فقال لهم:

- ما فيش مشاكل، نعمل العملية وبعدين نتفاهم في الأجرة.

ورأيت فتاة جميلة تخرج من حجرته وهي غير قادرة على السير وحدها، وطلبت مني أن أطلب لها تاكسي، وفعلت، وذهبت إليها لأبلغها أن التاكسي ينتظرها في الشارع، فمدت ذراعها لي قائلة:

- ساعدني يا أخي.

واقتربت منها مترددا، وهي تمد ذراعيها في انتظار أن ترتمي في صدري لأحملها؛ لكنه قال مبتسما:

- ابعد يا ولد،عايز تصطاد في الميه العكرة ؟!

ونادى أم محمد لمساعدتها.

وكان كشفه في ذلك الوقت خمسة جنيهات، فرأيت امرأة من "الهناجرة" عنده هي وابنتها الشابة، فكشف على ابنتها وكتب لها العلاج، وفكت المرأة منديلها لتعطيه أجره، فوضعت فوق مكتبه ثلاثة جنيهات أو أقل قائلة:

- كل اللي معايا.

فقال في ضيق: هاتيهم.

ثم قالت له: وأنا يا دكتور أشكو من كذا وكذا.

وكتب لها هي الأخرى روشتة علاج.

وقد تحدثت عنه مع طبيب شركتنا الذي كان مسيحيا وماهرا مثله، فقال لي:

- ده معالج نصف سكان الإسكندرية.

ومن شدة حب الناس له في المنطقة يحكون عنه حكايات كثيرة، منها:

إن الليثي شقيق الرئيس الراحل جمال عبد الناصر قد أُصيب بمرض أتعبه لسنوات، فعرض نفسه على أكبر الأطباء في القاهرة والإسكندرية دون طائل، إلى أن دله البعض على صموئيل إسكندر. فعرف حالته، وأجرى له عملية جراحية ناجحة أراحته من عذابه، وعندما علم جمال عبد الناصر بهذا؛ عرض عليه أن يشغل وزارة الصحة، لكنه اعتذر قائلا:

- لا أستطيع أن أبتعد عن أهل المنطقة الذين أحبوني.

الدكتور سيزوستريس

كان وسيما، يميل للامتلاء، وعيادته مواجهة لدكان يبيع عصير القصب مواجه لمسجد سلطان، وتحته مطحن بُن مشهور، ويعالج الأمراض الباطنية والأطفال، كان ماهرا في عمله، لكنه عصبي

جدًا، لا يعجبه الحال المايل، ويضيق بالتصرفات التي تسبب الأمراض أو تزيد من آثارها؛ خاصة من النساء اللائي لا يعرفن كيف يهتممن بأطفالهن. وذهبتُ مرة مع صديق لي كان يعاني ارتفاعًا في الحرارة، فدهنت أمه جسده بالكحول والخل، فصاح فينا قائلا:

- إيه اللي بتعملوه ده، إيه الجهل ده؟!

ورغم مهارته في مهنته كانت عيادته خاوية، بسبب صراحته ومعاملته لمرضاه؛ خاصة النساء، فحكى لي صديق بأن أخاه الصغير مرض مرضا شديدا، فحملته أمه وذهبت به إليه، فأحس سيزوستريس بأن أم الطفل قد أهملت في رعايته، فصاح فيها غاضبا، وعند الاستشارة التي تتم بعد أسبوع من الكشف، أخذت صديقي معها، وجعلته يصعد بأخيه إلى الطبيب، وانتظرته عند بائع العصير، لكن الدكتور سيزوستريس دخل الشرفة بالصدفة لينظر إلى أحد، فظنته ينظر إليها، فجرت مسرعة خائفة منه.

وحكى لي صديقي الدكتور عبد المنعم الميلادي، عندما ذكرنا الدكتور سيزوستريس، بأنه كان صاحب أخلاق عالية جدًا، فقد كان عبد المنعم في حاجة إلى عمل بعد الظهر؛ ليزيد من دخله، وفوجئ بسيزوستريس يرسله إلى مستشفى خاص ليعمل به مساءً، دون أن يكون صديقه.

صبحي عوض

كانت عيادته في أول شارعنا من ناحية شارع إيزيس، وتخصصه أمراض نساء، لكنه كان يعالج جميع الأمراض، والمرضى يجلسون

في العيادة فيملئُونها، ثم يجلسون على درجات السلم ودخلة العمارة الكبيرة التي يسكنها. ومعظم زبائنه من النساء،يأتين إليه لعلاج جميع أنواع الأمراض، فقد كان يمازح كل مرضاه، ويُرْضي غرورهم، فقد ذهبت مع ابن عمي الذي كان يشكو من آلام في بطنه، وعندما تحدثت قال لي:

- عيناك فيهما ذكاء.

واكتشفت أنه يفعل هذا مع كل من يتحدث معه.

كتب العلاج لابن عمي، لكن أمه كانت من النوع القلق المجنون بأبنائها، فأصرت على أن نذهب به إلى مستشفى الجمهورية القريب، فذهبنا به، فقرر الطبيب أنه في حاجة لعملية جراحية.

لإزالة الزائدة الدودية، فجُن جنونها، وقالت:

- لأ، نرجع للدكتور تاني.

فعدنا إليه، فقال بعد أن فحصه: أيوه الزايدة جات له في السكة.

وكان كاذبا في ذلك، وطبيب مستشفي الجمهورية كاذب أيضا. فقد تم شفاؤه دون عملية جراحية.

وجلستُ في الصالة وسط مرضاه الذين ينتظرون الدخول إليه، فسمعت امرأة تحدث أخرى قائلة:

ـ أنا عارفه أنه ما يعرفش حاجة، بس أنا برتاح له.

كنت أعود إلى بيتي متأخرا، فأجد عيادته مضاءة، فقد كان يجري عمليات إجهاض في آخر الليل.

الفهرس

منافذ بيع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

ت : ٢٥٧٧٥٠٠٠
٢٥٧٧٥٢٢٨ داخلى ١٩٤
٢٥٧٧٥١٠٩

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

خلف كلية الإعلام - بالحرم الجامعى

بالجامعة - الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا - المحلة

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتب بريد المجمع الحكومى - توزيع

دمنهور الجديدة

مكتبة المنصورة

٥ ش السكة الجديدة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية

مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام

ميدان التحرير - الزقازيق

ت : ٠٥٥٢٣٦٢٧١٠ - ٠١٠٦٥٣٣٧٢٣٢